بحوث جامعية

RECHERCHES UNIVERSITAIRES
ACADEMIC RESEARCH

عدد 11 ـ جانفي 2014

كلية الآداب و العلوم الانسانية
Faculté des Lettres et Sciences Humaines

مجلّة فكريّة تعنى بقضايا الآداب والعلوم الإنسانيّة
تصدر عن كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس

هيئة التحرير

- منير التريكي
- علي بن نصر
- محمد بن عيّاد
- محمد بوعتور
- محمد العزيز النّجاحي
- علي الزّيدي
- أحمد الجوّة
- عقيلة السّلامي البقلوطي

شارك في هذا العدد

- نور الدين الحاج
- عماد الحياني
- الحبيب الجموسي
- أحمد الناوي البدري
- سامي العذار
- عبد الرزاق الحيدري
- منير قيراط
- نافع فهري
- وفا الكشو
- فتحي بورماش

بحوث جامعية
عدد 11 ـ جانفي 2014
RECHERCHES UNIVERSITAIRES
ACADEMIC RESEARCH

جامعة صفاقس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

بحوث جامعية

مجلّة أكاديميّة محكّمة

العدد 11 لسنة 2014

li264013c420044su

مجلة بحوث جامعية

الإدارة والتحرير

العنوان : طريق المطار كلم 4.5 – 3029 صفاقس
العنوان البريدي : ص.ب. 1168 3000 صفاقس
العنوان الالكتروني : www.flshs.rnu.tnsite web
الهاتف : 557 670 74 (00216) - 558 670 74 (00216)
الفاكس : 540 670 74 (00216)

المدير المسؤول : **محمد بن محمد الخبو**
رئيس التحريـر : **منيـر التريكـي**

هيئة التحرير

- منير التريكي
- علي بن نصر
- محمد بن عيّاد
- محمد بوعتور
- محمد العزيز النّجاحي
- علي الزّيدي
- أحمد الجوّة
- عقيلة السّلامي البقلوطي

شارك في هذا العدد

- نور الدين الحاج
- عماد الحياني
- الحبيب الجموسي
- أحمد الناوي البدري
- سامي العذار
- عبد الرزاق الحيدري
- منير قيراط
- نافع فهري
- وفا الكشو
- فتحي بورماش

شكـــر

تشكر إدارة "بحوث جامعيّة" جزيل الشكر الأساتذة الذين أسهموا في التحكيم بالنسبة إلى هذين العددين وهم :

- أحمد السماوي
- محي الدين حمدي
- حمادي صمود
- خالد ميلاد
- عادل خضر
- محمد صالح مولى
- محمد بوهلال
- محمد الباردي
- محمد بن عيّاد
- عبد الفتاح براهم
- عبد الرزاق بن عمر
- محمد الخبو
- بسام الجمل
- محمد نجيب العمامي
- خالد الغريبي
- نور الدين الفلاح
- كمال اسكندر
- منير التريكي
- عقيلة البقلوطي

- GROSS Gaston (2004) : « Réflexions sur le traitement automatique des langues », Actes de ***JADT** 2004,* Vol. 1. 545-556.
- Harris Zellig Sabbetai (1970) : « La structure distributionnelle », ***Langages,*** n° :20, Larousse, Paris, 14-34.
- Le pesant Denis. (1994) : « Les compléments nominaux du verbe *lire* Une illustration de la notion de "classe d'objets"». ***langages***, n° :115, Larousse, Paris, 70-78.
- Xavier Blanco (2001) : « Dictionnaires électroniques et traduction automatique espagnol-français », ***Langages***, n° :143, Larousse, Paris, 49-70.

البدو والبادية في تونس الحديثة، من خلال آثار الرحالة الأوروبيين[1]

الحبيب الجموسي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – صفاقس
الجمهورية التونسية

Résumé :
Par une lecture quasi exhaustive des œuvres des plus célèbres voyageurs européens dans la Régence de Tunis à l'époque Moderne, nous essayons de relever « l'image du Bédouin » que véhicule cette « littérature de voyage ». Notre objectif primordial outrepasse les limites de « l'image de l'autre », canalisée dans des schèmes européocentristes de l'époque. Nous essayons, cependant, de dégager les éléments historiques qui permettent à un historien d'étudier l'évolution linéaire dans le temps et dans l'espace, et le dynamisme d'une catégorie de la société tunisienne durant presque trois siècles. Cette évolution et ce dynamisme sont pris dans un angle de vue d'étrangers à la société tunisienne et à la civilisation arabo-musulmane. Une telle « image » constitue, pour nous, une vision autre que celle des historiens et chroniqueurs locaux de l'époque moderne. Elle nous permet, donc, de pousser l'investigation pour mieux connaître les structures socioculturelles de cette tranche de la société, apparemment peu étudiées.

Abstract :
In this paper, we try to study the socio-cultural structures of a part of the Tunisian society in the Modern period. We are interest by the Bedouin's history, neglected by the local historical sources. Our modern historians and chronicles were effectively more attached to the urban society and considered the rural one as marginal. In consequence, our study involves the european literature of travel

1– وقع تقديم هذا العمل في الندوة العلميّة التي نظمتها "الجمعيّة المصريّة للدراسات التاريخيّة" تحت عنوان "البدو والبادية في الوطن العربي عبر العصور" القاهرة 8/5 أفريل 2010.

as main historical source. Indeed, the European travellers, who effected several residences in the Tunisian regency, were meticulous observers and reported the infinitesimal details concerning all the members of the society, and specially the "Bedouins" who were strangers for them, even by their extern aspects, nor by their mode of live, habitudes and customs. After their sojourns among the Bedouin tributes which they met and well known, they left an enormous literature which permits to us to study this social group basing our research on a stranger and different look.

المقدمـــة :

يمكن اعتبار البدو في تونس كما في بقية الوطن العربي من ضمن المنسيّين أو من "لا تاريخ لهم"، وذلك مقارنة بالحظوة التي نالتها طبقات الأعيان وأصحاب السلطة والجاه لدى المؤرّخين والمخبرين والمحدّثين خلال مختلف الأحقاب التاريخية. ولم يرد ذكر هذه المجموعة المهمشة إلاّ عَرَضًا من خلال الحديث عن الصراعات السياسية في البلاد العربية بصفة عامة أو عندما يتحامل عليهم الحضريون فيطلق المؤرّخون العنان لأقلامهم محمّلين البدو تبعات شتى أنواع الأزمات[2].

إلاّ أنّ البدو، خلال مختلف الأحقاب التاريخية، فرضوا وجودهم على المجتمعات العربية المتمدّنة برفضهم الرضوخ لمشيئة أصحاب السلطة وبثوراتهم المتتالية على مختلف الأنظمة السياسية. كما فرضوا نمط عيشهم في ترحالهم واستقرارهم على المجتمعات الحضرية، ما يمكن أن نعبر عنه اليوم "بالثقافة البدوية" التي تحدت الزمن وخلّدت مخزونا ثقافيا بدويا يتألف من شعر وغناء وأكل ولباس...

اعتبارا لكل هذه المعطيات، نتساءل عن موقع هذه الشريحة في المجتمعات العربية في الكتابات التاريخية و الدراسات الأنتروبولوجية ؟

2- لعلّ ابن خلدون قد انفرد دون غيره من المؤرّخين والباحثين في تاريخ المجتمعات العربية بالحديث المطول عن البدو والبادية وذلك يندرج في صلب تحليله لتشكّل العمران انطلاقا من مرحلة البداوة التي يعتبرها أمرا ضروريا و"أنّ البادية أصل العمران والأمصار مدد لها"، ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدمة**، تقديم وتعليق الأستاذ خليل شحاذة ؛ دار الفكر، بيروت 2001، أنظر "فصل في أنّ البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأنّ البادية أصل العمران والأمصار ومدد لها"، ص 152.

يجد المؤرّخ نفسه دائما رهين المصادر التاريخية التي يعتمدها. فنظرا لما سبق ذكره من تجاهل المصادر العربية تاريخ المجتمعات البدوية عبر مختلف الأحقاب التاريخية، كثيرا ما يلتجئ المؤرّخون في حقل أبحاثهم وتقصّيهم للواقع التاريخي إلى المصادر الغربية كلّما استحثّهم شحّ المصنفات العربية الكلاسيكية المألوفة.

وتبدو كتب وآثار الرحّالة الأوروبيّين في غالب الأحيان أكثر المصادر الغربية أهمية، يمكن الاعتماد عليها لاستقاء بعض الأخبار أو لتصحيح أخرى رغم ما تحتوي عليه من نقائص. والفترة الحديثة هي أكثر الفترات التاريخية حاجة إلى هذا الصنف من المؤلّفات كلّما تعلّق الأمر بكتابة التاريخ الاجتماعي والثقافي. فالمصنّفات المحلّية للفترة الحديثة أولت عناية خاصة بتاريخ البلاطات والحياة السياسية وأهملت إلى حدّ ما الحياة اليومية للمجتمعات. أمّا الأوروبيّون الّذين توافدوا على البلاد التونسية خلال هذه الفترة بأعداد كبيرة ؛ مرورا منها إلى مختلف مناطق البلاد العربية، فقد أطنبوا في نقل شهادات جدّ طريفة حول مختلف أوجه الحياة الاجتماعية لكلّ أصناف التونسيّين بعيدا عن كلّ الاعتبارات العرقية أو السياسية التي اعتمدها المؤرّخون المحلّيون في تصنيفهم للمجتمع التونسي. بل أظهرت الدراسات الإتنوغرافية والأنتروبولوجية الغربية منذ نهاية القرن 18 اهتماما خاصا بنمط العيش البدوي بالذات بعيدا عن الصراعات السياسية/الاجتماعية التّقليديّة بين البادية والمراكز الحضريّة.

ذلك ما سمح لنا رصد تطور البداوة كظاهرة اجتماعية قديمة تغيرت ملامحها بتونس خلال الفترة الحديثة إذ أنّ هذه الفترة الانتقالية شهدت أبرز الأحداث والتقلّبات السياسية. فقد سبقتها فترة الدولة الحفصيّة وهي فترة استقرار لنمط عيش بدوي انتشر داخل البلاد بين قسنطينة وطرابلس حيث انتقل البدو دون قيود ولا حواجز[3]. وعمدت الإدارة الاستعمارية، منذ انتصابها، إلى تشديد

3- يذكر ابن أبي دينار أنّ الأعراب كانوا في فترة الدولة الحفصية "في قوة واستحوذوا على جلّ البلاد كعرب إفريقيّة وأولاد أبي اللّيل وأولاد بو سالم..." ابن أبي دينار القيرواني (محمد بن قاسم)، **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967.ص 228.

الرقابة الحدودية بصفة واضحة وبالتالي إلى القضاء على نمط العيش البدوي وتثبيت القبائل المرتحلة في مناطق قارة للسيطرة عليها.

أمّا خلال الفترة الحديثة، فيبدو أنّ الحكم المركزي قد فشل في السيطرة الفعلية على البدو المنتشرين في كامل أرجاء البلاد التونسية انطلاقا من المبادئ الحضرية "للتعايش السلمي" كما في فرض نظام الجباية على القبائل المستقرّة. لذلك اعتمد أصحاب السلطة، وخاصة منهم البايات الحسينيون[4]، على جلب قسم من القبائل البدوية إلى صفهم واعتمدوا عليها في مقاومة استعصاء أخرى.

من هذه المنطلقات أصبح لزاما علينا تبني "الزمن البنيوي" أو "الأمد الطويل" في تمشينا لتقصي ميكانيزمات تدرج علاقة السلطة بالبدو من ناحية وللوقوف على تطور ظاهرة البداوة من ناحية أخرى، معتمدين في ذلك على مادة إخبارية "غربية" ثريّة تسمح لنا بتسجيل أدقّ خصائص عادات وتقاليد البدو التي اندثر أغلبها بحكم التطور .

I. البدو والبادية في المخيال الأوروبي :

1. الأوروبيون والمجتمع التونسي خلال الفترة الحديثة :

عرفت الإيالة التونسيّة خلال الفترة الحديثة وبالتحديد ما بين القرنين 17 و19 اهتماما غير مسبوق من قبل الأوروبيين، ذلك ما أدى إلى وصول عدد كبير من الرحّالة الغربيين إليها. ويمثّل هؤلاء فئة مرموقة من المثقفين تعددت اختصاصاتهم وميولاتهم إذ نجد من بينهم الأدباء والأطباء والعلماء والعسكريين. وقد تركوا لنا آثارا جاءت في شكل مذكرات شخصية أو رسائل لبعض الأصدقاء أو لأفراد عائلاتهم أو تقارير سرّية لمؤسّسات علميّة أو لأطراف سياسيّة ضمّت دراسات مختلفة الأهمّية. وتبرز أهميّة هذه الآثار على مستويين إثنين :

أ. على مستوى المقارنة :

تبدو أهمّية هذه الآثار واضحة إذا ما قارنّا بينها وبين المصادر التونسيّة لنفس الفترة الزمنيّة وخاصة منها كتابات المؤرّخين التونسيّين الذين كانوا في

4- قامت الدولة الحسينية على يد حسين بن علي التركي سنة 1705 م.

مجملهم مؤرّخي بلاطات اجتهد جلّهم في تمجيد أسيادهم من البيت الحسيني أو تحاشوا الدخول في جزئيّات النظام والسلطة بتونس[5]. كما أنّهم غالبا ما أطنبوا في سرد الأحداث السياسية وأولوا الصراعات والتناحر على الحكم اهتماما أكبر. وبالتّالي أهملوا دراسة الظواهر الاجتماعية، فباتت دقائق الحياة اليومية للتونسي من عادات وتقاليد ولباس وأكل ومعاملات بديهيّة بالنسبة إليهم لم يعيروها أيّ اهتمام.

بيد أنّ هذه الجزئيّات شدّت انتباه الأجانب، بحكم انتماءاتهم الثقافيّة والحضاريّة الغربيّة. فلم يترك الرحّالة الأوروبّيون، الّذين زاروا البلاد التونسيّة خلال الفترة الحديثة، ظاهرة من الظواهر الاجتماعية إلاّ وسجّلوها في مذكّراتهم وعلّقوا عليها[6].

ب. على مستوى الآثار في حدّ ذاتها :

نتساءل هنا عن الميزات التي أهلّت هذه الآثار لتلفت انتباه الباحثين وتجعل منها مصادر شبه وحيدة لدراسة الخصائص الاجتماعية للإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة.

غالبا ما ينبهر الباحث أمام كثافة المعلومات التي تتضمنها آثار هؤلاء الرحالة كلّما تعلق الأمر بطرائف الأخبار عن الحياة اليومية للتونسيين أو ما

5- بالنسبة لتاريخ الإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة، نذكر على سبيل المثال :
ابن أبي دينار القيرواني (محمد بن قاسم)، **المؤنس... نفس المصدر**، الوزر السرّاج (محمد)، **الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة**، تقديم محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1984. الباجي (الصغيّر بن يوسف)، **المشرع الملكي في سلطنة أولاد حسين بن علي تركي**، تحقيق أحمد الطويلي، تونس 1999. بن عبد العزيز (حمودة)، **الكتاب الباشي**، تحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970. محمود مقديش، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988. ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تحقيق أحمد الطويلي، الدار التونسية للنشر، تونس 1989.

6- انظـــر :
Jamoussi (H), « Les voyageurs européens en Tunisie au XVIII[è] S. : des Chrétiens en terre d'Islam », in *Actes de la IVè rencontre internationale sur : Occident-Orient : Aux origines du dialogue islamo-chrétien (XVI[è] – XIX[ès])*, F.T.E.R.S.I, Zaghouan, sep. 2002, pp.24-39.

تقدم من دقيق الملاحظات عن الهياكل السياسية للدولة إذ أنّهم جُبلوا، بحكم ثقافتهم واختصاصاتهم المتعدّدة، على "حب الاطلاع" مثلما عبّر عن ذلك الرحالة الإنكليزي Thomas Shaw[7] عندما ذكر في مقدمة كتابه أنّ "الغاية المنشودة من السفر إلى هذه البلاد (شمال إفريقيا و المشرق) هو الإطلاع على ما يشدّ الانتباه وآلاف الغرائب الأخرى التي تبدو على غاية من الأهمية..."[8].

تكمن هذه الغرابة التي تحدّث عنها أشهر الرحّالة الغربيّين خلال القرن 18 في ما تعلّق بالحياة اليومية للتونسي من عادات وتقاليد ولباس وأكل أو ما ورد من إشارات جدّ دقيقة عن الحياة الثقافية. ولئن بدت هذه الخصائص الاجتماعية مألوفة وبديهيّة لدى مؤرّخي تلك الفترة ولا تبعث على الاستغراب حتّى تصنّف من بين المواضيع المؤهّلة للتمحيص، فهي تصبح بالنسبة إلينا مادّة أوّلية يمكن الاعتماد عليها في كتابتنا للتاريخ الاجتماعي التونسي للفترة الحديثة.

2. صورة البدوي في المخيال الأوروبي :

الصورة التي رسمها جلّ الرحالة الأوروبّيين للبدو في تونس خلال الفترة الحديثة هي عبارة عن تمثّلٍ لما عجزوا عن فهمه على أرض الواقع إن كان ذلك على مستوى تحديد جذورهم التاريخيّة أو في إطار تصنيفهم من حيث نمط عيشهم الّذي يميزهم عن بقية سكان البلاد وتحديدا سكان المدن. وتتبلور هذه الصورة ضمن المرجعيّات الغربية التي اعتمدوها في فهمهم "للآخرين" من خلال التصور الغربي للعالم الخارجي بصفة عامة والشرقي بصفة أدقّ.

أ- صعوبة في تحديد الهوية :

تبرز هذه الصعوبة كلّما حاول هؤلاء الرحالة تصنيف البدو داخل المجتمع التونسي أو عندما أرادوا تحديد جذورهم التاريخية. فالمصطلحات التي استعملها الأوروبّيون في حديثهم عن البدو لم تكن موحّدة بل اختلفت حسب

7- من أشهر الرحالة الأوروبيين. قام برحلة إلى شمال القارة الإفريقية خلال سنة 1724 كما زار مصر والشام. يعتبر الكتاب الذي خلّفه هذا الرحالة من أشهر كتب الرحلات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إذ أصبح مرجعا لكلّ الأوروبيين الذين زاروا هذه المناطق.

8- Shaw (T), *Travels observations relating to several parts of Barbary and Levant*, Oxford, 1738, Traduit en français par Jean Neaulm, *Voyage de Mr Shaw, MD...*, La Hay 1742, introduction.

الفترات الزمنية وحسب ما تراءى لهم من نمط عيش هذه المجموعات البشرية في ترحالها أو في استقرارها.

ولعلّ عبارة "العرب" هي الأكثر استعمالا على امتداد العصور وإن كانت في دلالاتها تختلف عن عبارة "الأعراب" أو العربان" التي غالبا ما كان يطلقها سكان الحواضر على سكان البوادي والأرياف. كما أنّ نطق بعض المخارج الصوتية كان يحول هؤلاء الغربيّين دون إبراز الفوارق بين مختلف العبارات. فاستعمالات عبارة Arabe(s) الدارجة في كتب الرحالة لا تفرق بين "عربيّ" و"أعرابيّ" و"أعراب" والحال أنّ هذه العبارات لها دلالات مختلفة لا يقف على دقتها إلاّ من كان عارفا بخفايا اللغة العربية. وربما عجز حتى المستشرقون منهم على تحديدها. فمثلا، يتحدث Shaw في بداية القرن 18 عن "العرب المتشردين" أو "العرب قطاع الطرق" دون أن يحدّد المناطق التي يقطنها هؤلاء. بل يضيف أنّ "هؤلاء الحرايمية[9] الذين ننعتهم في بلادنا بالعرب المتوحشين.. شانهم شأن كلّ العرب دون استثناء، متساوون وتحدوهم نفس الطباع الخبيثة كلّما توفرت لهم فرص السطو والقتل"[10].

وفي نفس السياق، لا يفرق قارئ كتاب الأب Poiret[11] بين العرب والبربر من سكان المناطق الشمالية الحدودية بين تونس والجزائر. فهذا الرحالة الفرنسي يتحدث عن سكان شمال إفريقيا مستعملا عبارة "Arabes" وهو في حقيقة الأمر يتحدث عن "الأعراب" الرحل من القبائل التي تتنقل داخل المنطقة[12]. فتختلط المفاهيم في ذهن القارئ الّذي لا يتسنّى له أن يفرق بين "العرب" الحضريين و"الأعراب" أو "العربان" من القبائل العربية والبربرية.

9- استعمل عبارة " Haramees" وهي عبارة شرقية.

10- Shaw (T), *Travels observations...op.cit.*, t.1, introduction.

11- زار تونس سنة 1789 وجاب كامل المناطق الشمالية الحدودية بين تونس والجزائر.

12- Abbé Poiret, *Voyage en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie pendant les années 1785/1786...*Paris 1789, p.54.

أمّا عبارة "بدويّ" "Bédouin" فلم تكن دارجة إلى حدود القرن 17[13]. استعملها Peyssonnel[14] في تصنيفه للمجتمع التونسي إذ يتحدث عن : "البدو والعرب الفلاّحين الذين يمثّلون الطبقة الوضيعة من المجتمع"[15]. إلاّ أنه يتحدّث عن "البدو أو المور الّذين يسكنون الريف" في مواضع أخرى من الكتاب وتحديدا عندما يصف نمط عيش البدو[16]. أمّا Venture De Paradis[17]، فقد استعمل عبارة البدو مثلما سمعها عن سكان الحاضرة "مثلما يقول أهل البلاد". ثم كتبها مثلما نطقها "Bedvois". وقد حاول تدارك العجز في النطق فأضاف مباشرة بعدها "أو العرب الذين يسكنون الخيام"[18]. ولم تصبح هذه العبارة دارجة إلاّ خلال الفترة الاستعمارية.

كما صنّف الرحالة الأوروبيّون البدو من بين الـــ Maures. وهذه العبارة استعملت على مختلف العصور لنعت شعوب ومجموعات متعددة في بلاد المغرب. فالإغريق استعملوا عبارة Moros في حديثهم عن البربر سكان شمال إفريقيا واستعمل الرومان Mori لنفس المجموعة. كما نعت بها المسيحيّون مسلمي إسبانيا "المورسكيّون" Moriscos. ومنذ انتصاب الحكم التركي بتونس أصبحت عبارة Maures تعني في السياق، المجموعة التركية التي قدمت إلى تونس في خضمّ الصراع العثماني الإسباني. ويختلط الأمر لدى أبي الحسن الوزان[19]، إذ أنّه يعتبر بعض سكان المناطق الصحراوية المتاخمة

13- حسب المعجم الفرنسي Le petit Robert دخلت هذه العبارة إلى اللغة الفرنسية في حدود سنة 1546 وتعني عرب الصحراء الرحل.

14- زار تونس سنة 1724 في إطار بعثة علمية قادته عبر إيالتي تونس والجزائر. وهذا العالم في النباتيات قدّم إلى جانب دراسته لكل أنواع النباتات والأشجار التي صادفها في طريقه، وصفا دقيقا لنمط عيش التونسيّين آن ذاك.

15- Valensi (L), *J.A Peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger*, La Découverte, Paris 1987, p.79.

16- *Ibid.*, p.81.

17- مستشرق، شغل منصب مترجم بالقنصلية الفرنسية المعتمدة في تونس ما بين 1786/1780 وشارك سنة 1798 في الحملة الفرنسية على مصر.

18- Cuoq (J), *Venture De Paradis, Tunis et Alger au XVIIIè S*, Paris 1983, p.49.

19- هو أبو الحسن الوزان من مدينة فاس المغربية. أصبح يعرف بليون الإفريقي Léon l'Africain بعد أن وقع أسيرا بين يدي المسيحيين و تنصّر في روما في حدود سنة 1520.

للأراضي اللّيبية، وهم من "العرب الرحّل يعيشون هناك حفاة عراة، أقرب إلى المور الّذين يسكنون العاصمة من غيرهم"[20].

ونظرا لهذه الصعوبة في تحديد مصطلح موحّد يطلق على البدو رحلا كانوا أو مستقرين حاول أغلب الرحالة الأوروبيين تقريب الفهم لقرّائهم معتمدين على عبارات غربية تؤدّي معنى نمط عيش هذه المجموعات. فاستعملوا : Ruraux (ريفيون) Pastoraux (رعاة رحل) Bergers (رعاة مستقرون) Nomades (الرحّل المتنقّلون وغير المستقرّين). أو أنّهم صنّفوهم حسب مناطق استقرارهم أو مجالات ترحالهم. فتحدث البعض عن Les Montagnards "الجبالية" (وهم سكان جبال عمدون ومقعد الفاصلة بين تونس والجزائر) أو "الشلوح" وهم بدو المغرب الأقصى و"القبايل" Les Kabyles أي سكان منطقة القبايل بالجزائر[21] أو الصحراويّون Les Sahraouis وهم سكان الصحراء الّذين يذكرهم De Paradis بقوله "وهم سكان المناطق المتاخمة للصحراء في شريط هائل يمتد من تافيلات بالمغرب الأقصى إلى مملكة طرابلس"[22]. أو سكان الواحاتLes Oasiens وهي المنطقة التي يحددها Thomas Shaw "من المحيط الأطلسي إلى مصر والتي يسميها جغرافيو هذا العصر ببلاد الجريد وهي العبارة التي تعني بالعربية بلاد الجفاف"[23].

قد يعود الخلط بين كل هذه المصطلحات إلى عدم قدرة هؤلاء الأوروبيين على تحديد موقع هذه الشريحة من المجتمع التونسي والمغاربي

20- Léon (l'Africain), *De l'Afrique, contenant la description de ce pays*, t.1, traduit par Jean Temporal, Paris 1830, p.210.

انظر الترجمة العربية : الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، 1983.

21- "يلقب سكان الجبال بالمغرب الشلوح والقبايل بالجزائر. أمّا بتونس فيلقب البدو من سكان الجبال، الجبالية وخاصة أولئك الّذين يقطنون الجبال الساحلية الشمالية وجبال الكاف الّذين يغطون رؤوسهم ويتركون لحاهم وبهذا يختلفون عن الشلوح والقبايل وعن الوسلاتيين (سكان جبل وسلات) الذين يحلقون لحاهم ويتركون شواربهم ورؤوسهم عارية يحلقون جوانبها ويتركون خصلة شعر في أعلى هممهم"

Cuoq (J), *Venture De Paradis… op.cit.*, p.49.

22- *Ibidem.*

23- Shaw (T), *Travels observations…op.cit.*, t.1, p.3.

إجمالا وخاصة إلى اختلاف أرهاط البدو والقبائل البدوية التي صادفوها في طريقهم عربا كانوا أو بربرا. فهي تارة مجموعات صغيرة مغيرة و"متوحشة" وتارة قبائل مستقرة في مكان واحد في خيام أو في منازل من الطوب داخل قرى صغيرة (الدوار) أو متنقلة من مكان لآخر بحثا عن الكلأ والمراعي أو متاجرة بين مناطق جنوب الصحراء وبقية تراب البلاد التونسية.

ذلك ما يبرز أنّ العنصر البدوي لم يكن موحدا في تونس وفي المغرب العربي إجمالا حيث أن البدو اختلفوا باختلاف مواطن استقرارهم وترحالهم، جبالا كانت أو سهولا أو سباسب أو مناطق صحراوية. وبالتالي تفاعل كل عنصر مع البيئة التي انتمى إليها. فاختلفت عاداتهم وتقاليدهم، إلى جانب اختلاف لهجاتهم التي تنحدر من البربرية[24] أو من العربية. وكانت في بعض الأحيان خليطا بين اللّغتين.

أمّا عن جذور البدو التاريخية فقد حاول الرحالة الأوروبيون تحديدها اعتمادا على المصادر الغربيّة من كتب المؤرخين الرومان (Tite live, Aristophane, Augustin, Cicéron, Strabon,) والمصادر الدينية (الأناجيل والقرآن) وبعض المصادر العربية (الإدريسي و البكري وابن حوقل وابن خلدون). أو أنهم اعتمدوا على اشتقاق بعض الأسماء. فقبيلة "النمامشة" التي اتّخذت مجالا لها على امتداد قرون عديدة المنطقة الحدودية التونسية الجزائرية، أوحت إلى Marmol[25] بعبارة Numides. وقد اعتبرهم "السكان الأصليّين لشمال

24- يذكر ابن خلدون لهجة البربر فيقول : "...ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم..." ويضيف أنّ "إفريقش بن صفين من التبابعة لمّا رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم...تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر. والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة..." **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحاذة، دار الفكر، بيروت 2001، ج 6 ص 117.

25- إسباني الأصل، شارك في الحملة التي قادها الملك الإسباني شارلكان ضد تونس سنة 1535 ومكث هنالك مدة عشرين سنة. ثم وقع أسيرا واقتيد إلى المغرب الأقصى حيث مكث ما يناهز عن السبع سنوات ذلك ما سمح له بأن يكتشف عن كثب كامل شمال إفريقيا ومصر حيث تنقل صحبة قوافل تجارية مغربية.

القارة الإفريقية ومن هذه التسمية اشتقت عبارة "Nomades"[26]. واعتمد الديبلوماسي الفرنسي De Paradis على نفس التفسير إذ اعتبر أنّ "النوميديّين خلّدوا اسمهم في قبيلة كبيرة تسمى إلى يومنا هذا النمامشة تقطن منطقة تبسة على الحدود الجزائرية التونسية، وهي من أصل بربري"[27].

ويضيف Marmol أنّ "هذه القبائل من الرحل استقرّت في بادئ الأمر في المناطق الغربية من شمال إفريقيا وتفرّقت فيما بعد في مناطق عديدة... وقد سكنت الأرياف في شكل مجموعات تحت الخيام لأنّها ملكت قطعانا هائلة من الماشية...إلاّ أنه على مرّ الأزمنة حدثت بينها حروب عديدة سيطرت على إثرها بعض القبائل على السهول واضطرت القبائل المنهزمة إلى الالتجاء إلى الجبال حيث اختلط أهاليها بالأفارقة الأوّلين وقلّدوهم في بناء المنازل لاتّقاء تقلّبات الطبيعة"[28].

أمّا Thomas Shaw، وقد نقل عنه جلّ رحالة القرنين 18 و 19، فقد نسب البدو العرب إلى إبراهيم جدّ اليهود والمسيحيين الذي "انحدر منه فرع اليهود عن طريق زوجته سارة وفرع العرب عن طريق جاريته هاجر"[29].

ومن ناحيته، اعتبر Guérin[30] أنّ "العرب الّذين يسكنون تحت الخيام كانوا قبل مجيء الأتراك أكثر عددا من سكان المدن والقرى. إلاّ أنّ سياسة

26- "لقّب الإغريق سكان الصحراء اللّيبية Nomades واللاتينيون Numides وهم يقطنون الخيام مثل العرب ويتنقّلون من هنا وهناك على ظهور جمالهم"

Marmol, *L'Afrique de Marmol*, traduction Nicolas Perrot, 3 tomes, Paris 1667, t.1, p.73.

27- Cuoq (J), *Venture De Paradis…op.cit.*, p.49.

28- Marmol, *L'Afrique de Marmol*, t.1, p.68.

29- Shaw (T), *Travels observations…op.cit.*, t.1,

ذلك ما يؤكده ابن خلدون الذي ينسبهم إلى "ولد كنعان بن حام بن نوح..." انظر **ديوان المبتدأ...** نفس المصدر، ج 6 ص127. وذكر كذلك أنّ "افريقش بن ضبيع الذي سميت به إفريقية ترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير بعد غزوه لشمال إفريقيا فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندرجوا في إعدادهم..." **نفس المصدر**، ص 17.

30- مختص في علم الآثار. قام خلال سنة 1860 برحلة علمية قادته عبر كامل تراب الإيالة التونسية.

القمع التي توخاها الأتراك تجاه أقوام البدو الرحل التي قاومتهم قلّصت من عددهم حتى أصبح اليوم سكان الخيام أقلّ عددا من سكان المدن والقرى"[31].

نحن إذن أمام مجموعة من المصطلحات والمرادفات المختلفة، تطورت وتغيّرت عبر العصور بتغيّر المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية : البادية والريف، البدوي والريفي والفلاح، العربي والبربري.

ما هو إذن المصطلح الّذي يتلاءم ونمط عيش "البدو"، هذا الصنف من المجتمع الذي عمّر شمال إفريقيا منذ أقدم العصور قبل مجيء العرب المسلمين وخاصة قبل "الزحف الهلالي"(441 هـ/1146 م) الذي نشر "نمط العيش البدوي" في أرجاء إفريقيّة حسب المصادر العربية ؟ وهل أنّ للبداوة جذورا عربية فحسب أم أنّها تمثّل "نمط عيش" قديم ارتبط في شمال إفريقيا كما في الجزيرة العربية بالبادية ؟ وهل للبادية نفس المفهوم على امتداد العصور ؟

تجمَع المعاجم العربيّة[32] "البادية بباديات وبوادي، أي الصحراء، خلافا للحضارة". والبدويّ يعرّف "بساكن البادية من القبائل العربية الرحل". و"البداوة: هي الظاهرة الاجتماعية للعيش في البادية".

تكتفي هذه التعاريف المختلفة بربط البدو والبادية بقفار الجزيرة العربية كما تقتصر على تعريف "البادية" بضدّها "خلافا للحضارة". وهي في نهاية الأمر لا تحدّد الخصوصيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للبدو. وحتّى ابن خلدون فهو لم يسعفنا ولم يوضح أكثر من كون "البدو نوعان يجتمعان للتعاون على تحصيله (المعاش)، منهم من ينتحل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاة والبقر والمعز والنحل والدود..."[33]. واكتفى بتقديم وصف دقيق لنمط عيش من عاصروه من البدو. لكن، هل ينطبق ذلك على كل أصناف البدو في كل أطراف البلاد العربية وخلال كل الأحقاب التاريخية ؟

31- Guérin (V), *La Régence de Tunis*, t.2, Paris 1862, 2 tomes, t.1, p.49.

32- من بينها ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة.

33- ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدمة...نفس المصدر**، ص 165.

أمّا في ذكره لأصول البربر فابن خلدون يتحدث عن "أجيال من الآدميين هم سكان المغرب القديم... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويضعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار. ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب..."[34].

يبدو جليّا أنّ ابن خلدون فرق بين صنفين من البدو : "البدو العرب" و"البدو البربر". إلاّ أنّ نمط عيشهما يتطابق بحكم ارتباطهما بنفس البيئة والإطار الجغرافي. كما أن القيم الأخلاقية التي اتصف بها "البدو البربر" لا تختلف في شيء عمّا نسب للعرب و"للبدو العرب" على وجه الخصوص. فقد جبل البربر، حسب ما ذكره ابن خلدون، "على الخلق الكريم...من عز الجوار وحماية النزيل ورعي الأذمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات في الشدائد...وقرى الضيف والإعانة على النوائب..."[35]

البداوة إذن، هي "نمط عيش" تفاعلت في بلورته عناصر طبيعية مادية وبشرية وحضارية. والبادية لا تعني القفار والصحاري فحسب، أي المشهد الجغرافي، إنّما هي مجال تفاعلت فيه المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمجموعة بشرية معيّنة. وولّدت هذه المعطيات ما يمكن التعبير عنه "بنمط العيش البدوي"[36]. وبالتالي تكون البداوة مفهوما متطورا حسب العصور والأحقاب التاريخية. فأرياف العصر الحديث والمعاصر ليست البوادي الّتي كانت منتشرة خلال العصور الوسطى في الجزيرة العربية أو في شمال إفريقيا. وبدو العصور الوسطى ليسوا ببدو الفترة الحديثة.

34- ابن خلدون (عبد الرحمن)، **ديوان المبتدأ والخبر**... نفس المصدر، ج 6، ص 116.

35- **نفس المصدر**، ص 136.

36- "تتضمن مظاهر أنماط العيش القبلي صور التفاعل مع المجال وتختزن الثقافات مدى تقدم استغلاله رعيا وزراعة مما يسمح بالقول بأنّه ليس مجرد فضاء مادي بقدر ما هو أحد عناصر تشكل الهوية" الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث (ق 16 – ق 19)، من بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز : السباسب الوسطى مثالا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، صفاقس 2005، ص 58.

وفي تونس، شهدت الأوضاع السياسية منعرجا كبيرا منذ انتصاب حكم الأتراك في المنطقة في نهاية القرن 16 وخاصة منذ قيام الدولة الحسينية في مستهل القرن 18 ذلك ما أثّر على المعطيات الاجتماعية والاقتصادية للبلاد التونسية التي بدورها غيّرت نمط عيش السكان عموما. فمنذ أواسط القرن 18 أصبح البون شاسعا بين شريط ساحلي تونسي تطورت به ظاهرة التمدن وانتشرت ظهيره الأرياف حول المدن والقرى وبين داخل البلاد حيث أبقت البداوة على جملة من خصوصياتها السوسيوثقافية. كما أدّت التقلّبات السياسية والتطورات الاقتصادية إلى تثبيت عناصر مادية وثقافية جديدة لسكان الأرياف مما أدى إلى تشكل تنظيم قبلي مميز للبلاد التونسية، تزامن مع بروز مفهوم "الهوية التونسية باعتماد مصطلحي الوطن والبلاد في تعبير الفرق والعروش"[37].

وخلال القرن 19، أصبحت الأرياف تضمّ "كلّ الذين يعيشون مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من استغلال الأرض". وبرز معها مصطلح الريفي (rural) وهو ذلك "الفلاح (agriculteur) الذي يقتات من الفلح وهو في آن واحد البدوي الرّاعي (pastoral)"[38]. نوعان من الريفيين مختلفان. ويتمحور الاختلاف حول نمطي عيش انتشرا بكامل البلاد : "الاستقرار" للفلاّحين و"الترحال" للرعاة. أمّا "التنظيم القبلي" فهو السائد في المجال الريفي بكلّ ما يحمله من خصوصيات اجتماعية وثقافية ثابتة للقبيلة التونسية. خصوصيات توارثتها الأجيال وتفاعلت في تحديدها حضارتان تنتميان إلى نفس الإطار الجغرافي "الصحراوي" والاجتماعي "القبلي" ونعني من ذلك الحضارة العربية والحضارة البربرية.

ذلك ما يمكن أن نستشفه من مجمل آثار الرحالة الأوروبيين. فهؤلاء الأجانب عن الحضارة العربية الإسلامية وعن دقائق طباع السكان بدوا كانوا أو حضّرا لم يولوا التّعاريف المحلّية والمصطلحات السائدة اهتماما بقدر اهتمامهم بالواقع الاجتماعي والحضاري الملموس "للبدو" بقطع النظر عن الجذور العربية أو البربرية للقبائل التونسية والبدو التونسيين بصفة عامة. لذلك كانت آثارهم

37- **نفس المرجع**، ص 48.

38- Cherif (M.H), «Les mouvements paysans dans la Tunisie du XIX^{è} siècle», in *Revue de l'Occident musulman et la Méditerranée*, n°30, 2ème sem. 1980.

بمثابة فسيفساء من الوصف لدقائق خصائص الحياة اليومية وعادات وتقاليد "البدو" بكل أصنافهم.

ب- بين التوحش والتحضر :

ثنائية طغت على مصادرنا الغربية على امتداد الفترة الحديثة إذ تراوحت مواقف الأوروبيين من "البدو" بين مادح وقادح، وإن غلبت عليها، في نهاية الأمر، تلك الصورة القاتمة للبدو التي رسمها كلّ الذين زاروا البلاد التونسية. ففي حين يتراءى البدوي للرحالة الأوروبيين في صورة تقترب أكثر إلى الوحشية منها إلى الإنسانية، فهو في آن واحد يعيش على فطرته ويختزن ما توارثته الأجيال من قيم أخلاقية يمتاز بها عن بقية سكان المدن.

إنّ هذه الصور لا تعدو أن تكون امتدادا للمواقف السلبية التي حملها الأوروبيون في حقائب رحلاتهم عن البدوي والبادية. وهي عبارة عن أحكام مسبقة انتقوها من مدوّنة غربية نسجها في بعض الأحيان المخيال الأوروبي عن سكان شمال إفريقيا بل عن العرب والشرقيّين عموما. هي صورة توارثتها الأجيال على امتداد قرون من الصراع الإسلامي المسيحي على سواحل المتوسط شحذتها الاختلافات الحضارية التي لامسها الرحالة الأوروبيّون على أرض الواقع. فمجمل العادات والطباع والعلاقات الإنسانية واختلاف المظهر الخارجي للبدو، مقارنة بما تعوّد عليه هؤلاء في الشكل ولون البشرة واللّباس، باتت لديهم مدعاة إثارة وموضوع دراسات دقيقة كان للنظرة الأوروبية "المركزية"[39] دور في بلورتها.

وفي هذا السياق، اعتبر Laugier De Tassy[40] في مقدمة كتابه "تاريخ أقطار شمال إفريقيا" أن الأوروبيّين الذين عاصروه لا يفرقون "بين سكان شمال

39- ما عبّرت عنه الدراسات التاريخية بـــ européocentrisme. انظر :
Bachrouch (T), "Les Barbaresques de Tunis au XVII[e] siècle mythes et interprétations", in *R.H.M,* n°31-32.

40- زار تونس سنة 1725. وقد حاول هذا الرحالة الفرنسي أن ينصف سكان شمال إفريقيا تجاه ما روجته كتب المبشرين المسيحيين خلال القرن 17 من صورة قاتمة لسكان هذه المنطقة.

إفريقيا[41] والأوغاد. ويلقبون سكان هذه المناطق بكل بساطة بالحيوانات، معتبرين أنّهم يفتقرون إلى ملكة التفكير وعاجزون على صنيع أي شيء مفيد بل ربما كانت الحيوانات أفضل منهم...إن ذكر اسم الأتراك أو المحمديين[42] أو العرب أو المور (Maures) يوحي لهؤلاء مثل هذه الأفكار، إلاّ أنّني مقتنع كل الاقتناع أن هؤلاء الأشخاص، ودون سابق علم، بإمكانهم أن يتعاملوا مع مسلمين عاريي الرأس بدون عمامة[43] أو "الشال" الذي يضعه البدوي فوق رأسه، وبلباس مسيحي، ويجدون فيهم ما يمكن أن يجدوه لدى أي مجتمع آخر... سوف أقدم في كتابي ما يساعد هؤلاء على إسقاط مثل هذه الأحكام المسبقة وأبين لهم أنه من بين مجتمعاتهم هنالك من هو أقل تحضّرا من الذين نحن بصدد الحديث عنهم..."[44].

وكتب الرحالة الفرنسي Chabrol في نفس الفترة : "غريب كم نحن في أوروبا غير عادلين تجاه العرب إذ نعتبرهم متوحّشين وشرسين. لقد عاشرناهم لمدة طويلة ونحن لشاهدون على مودّتهم وفطرتهم التواقة للخير وخصالهم الطبيعية..."[45].

لهذه النظرة الدونية للبدو علاقة مباشرة بالفترة الزمنية التي زار فيها هؤلاء الرحالة البلاد التونسية، إذ أنّ الفرق واضح بين الأوائل الذين وصلوا إلى شمال إفريقيا خلال القرنين 15 و16 في ظروف صعبة، إمّا بمثابة أسرى

41- إلى حدود القرن 18 استعمل الأوروبيون في كتاباتهم عبارة Barbarie للدلالة على شمال القارة الإفريقية و Barbaresques للدلالة على سكان شمال إفريقيا. ولهذه العبارات جذور يونانية ورومانية.

42- هي عبارة كثيرا ما استعملها الأوروبيّون في كتاباتهم إلى حدود القرن 19، للحديث عن المسلمين.

43- وتعني عبارة turban التي استعملها، "الشاشية" الحمراء التي يضعها التونسيّون على رؤوسهم.

44- Laugier De Tassy, *Histoire des Etats barbaresques qui exercent la piraterie contenant l'origine, les révolutions et l'état présent des royaumes d'Alger, de Tunis de Tripoli et du Maroc...Amsterdam, 1725.*

45- In, Sarga (M), "L'image des Bédouins dans la description de l'Egypte". *http://ema.revues.org/index638.html*

القراصنة أو تابعين للكنيسة الكاثوليكية مكلفين بتحرير العبيد، والعدد الكبير من الرحالة الذين زاروا البلاد التونسية خلال القرن 19 بمحض إرادتهم أو في إطار بعثات علمية.

لم تكن الرحلات الاستطلاعية والعلمية دارجة في بداية الفترة الحديثة وجلّ الأوروبيين الذين تركوا لنا آثارا مكتوبة كانوا من بين ضحايا القرصنة وقد أجبروا على العيش لمدّة معينة (بلغت في بعض الأحيان عدّة سنين) في السجون المخصصة للعبيد أو في قصور المسؤولين السياسيين، أو كانوا من بين رجال الكنيسة الذين قدموا لتخليص "العبيد البيض" ودفع فدية لتحريرهم[46]. لذلك، لعبت حركة القرصنة داخل حوض البحر الأبيض المتوسط دورا هاما في احتداد العلاقات بين الدول الأوروبية والإيالتين العثمانيتين تونس والجزائر وفي تشويه صورة سكان شمال إفريقيا لدى الأوروبيين قاطبة. إضافة إلى المرجعية الدينية السائدة آنذاك والتي تعتبر العرب والمسلمين قاطبة أعداء الكنيسة والمسيحية. فعلقت في أذهان الأوروبيّين أبشع صورة "للقرصان المسلم" الذي يُشهر سيفه في وجه المسيحيّين، يقطع طرقهم البحرية فيسطو على تجارتهم ويؤسر رجالهم ويسبي نساءهم. لذلك امتزجت صورتا "القرصان" و"المسلم" في الحديث عن كل الذين ينتمون إلى شمال إفريقيا وكلّ المسلمين أينما حلّوا[47].

أمّا خلال القرن 18 فقد لعبت فلسفة التنوير دورا كبيرا في توجيه نظرة الأوروبيين للبدو بصفة خاصة إذ أصبح الرحالة الأوروبيّون يبحثون من بين هذه المجموعات المنتشرة في ربوع البلاد عن "إنسان الطبيعة" الّذي ينعم بالحرية الطبيعية، مثلما روّج ذلك فلاسفة الأنوار دعاة الحرية وعلى رأسهم Jean Jacques Rousseau. ذلك ما رسمه الأب Poiret[48] في رحلته إلى الشمال

46- ما يعبّر عنه بـــ La rédemption. ومن يقوم بهذه العمليّة هو Le rédempteur.

47- كتب الأب Dan سنة 1637، وهو أحد أشهر مفتديي (Rédempteurs) رجال الكنيسة الكاثوليكية، أنّ "الأتراك والعرب والمور وشعوب أخرى محمدية سُحِروا بعقيدة مقيتة شجعتهم على استباحة المسيحيين بشتى الطرق"

Dan (Pierre), *Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, des Royaumes et des villes d'Alger, de Tunis, Salé et Tripoli*, Pierre Rocolet, Paris, 1637, p.27.

48- من أشهر فلاسفة عصره. وهو من رواد فلسفة روسو.

التونسي حيث كتب في إحدى رسائله "لقد تجاهلت الصورة التي سبق أن رسموها إليّ عن "العرب" وعن عاداتهم ووحشيتهم وحاولت إقناع نفسي بأنّ الإنسان كلّما اقترب من الطبيعة كان عليه أن يزداد طيبة. وهنا، لم أعد أشاهد فيهم إلاّ أولئك الجدود الأوّلين المنهمكين في رعي قطعانهم لا تثنيهم عن ذلك الحاجة إلى الترف والطمع..."[49].

وبحلول القرن 19، أصبح الرحالة أكثر واقعية ولم يتعاملوا مع "سكان الخيام" و "سكان الدوّارات"[50] من منطلق أفكار مسبقة بل اعتمادا على ما شد انتباههم على أرض الواقع من نمط عيش ميّز هذه الشريحة من المجتمع التونسي عن سكان المدن. كما اهتموا خاصة بالصراع شبه المتواصل بين السلطة والقبائل المستعصية. فبدت آثار رحالة القرن 19 أكثر إثارة وطرافة من غيرها إذ قدّمت لنا وصفا دقيقا عن حياة البدو أينما سكنوا وأينما حلّوا.

إلاّ أنّ صورة الوحشية للبدو تبقى سائدة لدى جل الرحالة على امتداد العصور واعتبر جلهم أن التوحّش والهمجيّة متأصلة فيهم إذ أنهم جبلوا على الشرّ ومعاداة كل أشكال التحضر. وقد حاول كلّ واحد من موقعه أن يعلّل هذا التصرف وهذه الوحشية.

يعود ذلك بالنسبة إلى البعض منهم للإطار الطبيعي الذي يعيش فيه البدو والمتمثل في الأراضي القاحلة الموحشة. فالصحاري التي يعيشون فيها أو حتى الغابات الجبلية هي مناطق فارغة طبيعيا أو لا تمت للحضارة بأية صلة وبالتالي هي خارجة عن أي إطار إنساني وتاريخي "anti-historique" وتنسب إلى الحيوانية.

وهي نفس الصورة التي رسمها Poiret للبعض من سكان الجبال الحدودية بين الجزائر وتونس. فذكر أنّ "هؤلاء المساكين ينسحبون إلى العيش داخل غابات لا يمكن اقتحامها ويسكنون في مغارات على سفح منحدرات جبلية رهيبة ويعيشون في انعزال تام بعيدا عن المناطق الحضرية ويقتاتون من الثمار

49- Poiret Abbé, *Voyage en Barbarie...op.cit.*, p.229.

50- الدوّارات : ج، دوّار، وهي تجمعات سكنية صغيرة لبعض القبائل المستقرة الّتي بنت منازلها من الطوب والقش أو من الخيام.

الطبيعية وعروق الأشجار الرطبة وبعض الحيوانات. إنهم أكثر العرب شراسة ولا أشك أن يكون بعضهم من آكلي لحوم البشر (anthropophage) نظرا لشدة جوعهم وشرههم للدم الإنساني..."[51]. أمّا Shaw فقد اعتبر أن "حياة الترحال ومعاملة الأتراك الجائرة لهؤلاء البدو منعتهم من التحضر والتعلم"[52].

وبصفة عامة ركز جل الرحالة الذين زاروا تونس خلال القرنين 18 و19 على جور السلطة تجاه القبائل داخل البلاد وجنوبها مما دعاها إلى التصرف بكل وحشية ومهاجمة ممثلي السلطة. وبذلك يتمثل البدوي لهؤلاء الأجانب بطبعه الحاد وعداوته المتأصلة للتحضر. إضافة إلى الصورة الّتي ما فتئت السلطة تروجها عن هؤلاء "الهمّج" وحالة "التعالي للحضّر على سكان البوادي والأرياف"[53].

هل تختلف هذه الصورة القاتمة عمّا ذكره ابن خلدون عن البدو بصفة عامة ؟

كتب صاحب المقدمة في الفصل الثاني من الكتاب الأول حول "العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال" : "واضطروا إلى إبعاد النجعة وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضّعة منهم فكانوا لذلك أشدّ الناس توحشا وتنزّلوا من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوانات وهؤلاء هم العربِ وفي معناهم ضواعن البربر وزناتة بالمغرب..."[54]. وفي ذكره للزحف الهلالي، يؤكد ابن خلدون على "اضطراب أمر إفريقيّة وخراب عمرانها وفساد سابلتها" لمّا عطفت جحافل القبائل العربية "على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركتها قاعا صفصافا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير..."[55].

51- Poiret Abbé, *Voyage en Barbarie…op.cit.,* p.228.

52- Shaw (T), *Voyages..., op.cit.,* p.338.

53- الباهي (مبروك)، **القبيلة... نفس المرجع**، ص 61.

54- ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدمة**...ص 152.

55- **ديوان المبتدأ والخبر**... نفس المصدر، ج 6، ص 17.

كما أنّه اعتبر البدو أكثر الخلق عداوة للتمدن في فصل خصّصه إلى "أن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب". وسبب ذلك "أنهم أمّة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابِه فيهم فصار لهم خُلقا وجبلّة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له..."[56].

في حين أن ابن خلدون حاول أن يعلّل "طبيعة التوحش" الّتي "جُبل" عليها البدو بأن اعتبر "تكد العيش وشظف الأحوال وسوء الموطن" حملهم "على التوحش في القفر"[57]، فإنّ جلّ المخبرين التونسيّين للفترة الحديثة أوغلوا في معاداتهم للبدو وصوّروهم في أبشع صورة دون تقديم أيّ تعليل لموقفهم من هذه الشريحة من المجتمع[58]. فابن أبي دينار ما فتئ يتحدث عن "زريعة الخبث والأصل اللّئيم أولاد سعيد[59] لا أسعدهم الله لأنّ طبعهم هو الفساد في البلاد ويهلكون الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد..."[60]. وابن أبي الضياف يطالعنا في كتاب الإتحاف بسجل من المصطلحات تتضمّن عشرات العبارات التي تؤثّث خطاب انتقاص لبدو الإيالة التونسية خلال القرن التاسع عشر، على غرار "العربان" و"أجلاف البوادي" و"نواجع العربان" و"عربان البوادي" و"أوغاد الجبل"... وهذا الموقف من البدو و"العربان" يمثل، دون شك، الموقف الرسمي للسلطة ونتاج تعالي سكان الحواضر الّذين يعتبرون هذه الشريحة من المجتمع التونسي تعيق أي شكل من أشكال "التمدن" مثلما روجت لذلك النظرية الخلدونية. كما أنّها غالبا ما أشهرت سيف العصيان في وجه السلطة المركزية

56- ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدمة**.... "فصل في أنّ أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر" ص 155.

57- **المصدر نفسه.**

58- يعتبر مبروك الباهي أنّ "مدونة العصر الحديث (مقارنة بسالفتها الوسيطة) ليس لها مسوغ غير الخلفية السياسية الموروثة لاسيما أنّ اكتساح العالم البدوي بداخل الإيالة كان من أبرز ما عزمت علي انجازه السلطة التركية منذ العهد المرادي"، الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس...نفس المرجع**، ص 61.

59- وفي موضع آخر ينعتهم "بأولاد تعيس الّذين لم يكن لهم رئيس إلاّ إبليس..." **المؤنس... نفس المصدر**، ص 233.

60- **نفس المصدر**، ص 228.

وممثّليها داخل البلاد، لذلك بدت معادية لأي شكل من أشكال التنظيم السياسي وموغلة في الهمجيّة.

II. البداوة التونسية قبيل الاستعمار الفرنسي :

تبدو دراسة البداوة في تونس خلال القرن 19 على غاية من التعقيد لتداخل الرواسب التاريخية للبدو وتطور ظاهرة البداوة نفسها على امتداد العصور والواقع السياسي للبلاد الّذي حدّدته آنذاك علاقة السلطة المركزيّة بالمجموعات البدوية المنتشرة في أرجاء الإيالة. على أنّ الدراسات التي تناولت موضوع البداوة في تونس الحديثة قدّمت بحوثا تنمّ عن جهود كبيرة لتحديد الخصائص الاجتماعية للقبائل البدوية التونسيّة خلال تلك الفترة. ولعلّ أبرز هذه الدراسات أطروحة Lucette Valensi [61] الّتي أقدمت على عمل ضخم التجأت خلاله إلى "تقارير لجان شؤون الأهالي المحلّيين" الاستعمارية المتعلّقة بقبائل الوسط التونسي وبالتحديد قبائل جلاص والهمامّة ووظفتها في نظرة عامة وشاملة لكل القبائل التونسية معتمدة على نمط فرضي من العلاقات الاجتماعية القارة قوامه النظرية "الانقسامية" القائمة على مبدإ "القرابة الدموية" و"الجهاز الجنيالوجي" في تحديد أسباب "إلتحام وانشطار القبيلة التونسية".

أمّا دراسة مبروك الباهي حول "القبيلة في تونس في العهد الحديث" فقد جاءت أكثر ديناميكية إذ تتبّعت بكلّ دقّة ظاهرة تطور البداوة بتونس من الاعتماد على الجمل الّذي مثّل تاريخيّا الوسيلة الرئيسيّة لترحال البدو عبر المناطق الصحراوية، إلى تربية قطعان الخرفان، ممّا شكّل مرحلة استقرار البدو معتمدين في ذلك على نمط جديد في "الحوز" وملكية الأرض[62].

هذا إضافة إلى عدد كبير من الدّراسات والمقالات الّتي خاضت بدورها في "التاريخ الاجتماعي القبلي" خلال الفترة الحديثة وشكّلت في مجملها قوام المدرسة التونسية في كتابة تاريخ هذه المجموعات البشرية[63].

61- Valensi (L), *Fellahs tunisiens, l'économie rurale et la vie des campagnes aux XVIII^e et XIX^e S.* Mouton-Paris 1977.

62- الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس... نفس المرجع.**

63- **نفس المرجع**، ص 39.

لا نروم في بحثنا هذا الخوض في هذه الأطروحات النّظرية بل سنقتصر على عرض للمشهد الّذي صوره الرحالة الأوروبيّون لانتشار القبائل التونسية خلال القرن 19 وذلك في مجال جغرافي حدّدته المعطيات السياسية الجديدة التي تولّدت عن انتصاب حكم الأتراك بتونس منذ نهاية القرن 16 وتدرج نحو بناء فضاء اجتماعي ثقافي تشكلت في صلبه القبيلة التونسية. ونصبو من ذلك إلى تتبّع ديناميكية تطور البداوة ونمط العيش القبلي في تونس الحديثة داخل إطار جغرافي وسياسي محدّد، اعتمادا على شهادات مجموعة من الغربيّين.

1. ثنائية المجال الجغرافي والمجال السياسي :

منذ انتصاب حكم الأتراك بتونس في نهاية القرن 16، ارتبط المجال الجغرافي التونسي، وبالتالي الفضاء الذي تتحرك داخله المجموعات القبلية والبدو بصفة عامة، بالمجال السياسي وذلك لأمرين: لاختلاف نظام الحكم بتونس وبالجزائر من ناحية، والنظام الجبائي الّذي فرضته السلطة على سكان البلاد. فالمجال الجغرافي مثّل فضاء ماديّا حدّد نمط إنتاج القبائل التونسية وعلاقاتها الاجتماعية. أمّا المجال السياسي فقد تشكّل على بنى العلاقات الجديدة للايالة التونسية مع جيرانها، الجزائر وطرابلس، وتحديدا منذ نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830، مما أجبرها على ضبط الحدود بينها وبين جيرانها. كما حدّدت سياسة العائلة الحسينية الجبائيّة المجحفة التي فرضتها على المجتمع البدوي من ناحيتها مجال تحركه بين مختلف مناطق البلاد.

ومن خلال قراءتنا لآثار الرحّالة الأوروبّيين، لاحظنا أنّ جلّ الّذين زاروا الإيالة التونسية منذ القرن 18 انطلقوا في وصفهم للبلاد من ترابط هذين المجالين وقد مثّلا حدودا تشكلت وتفاعلت وتطورت داخلهما كلّ القبائل التونسية منذ سقوط دولة الحفصيّين وانتصاب حكم الأتراك وتحديدا منذ قيام الدولة الحسينيّة سنة 1705.

أ- من البادية إلى الريف :

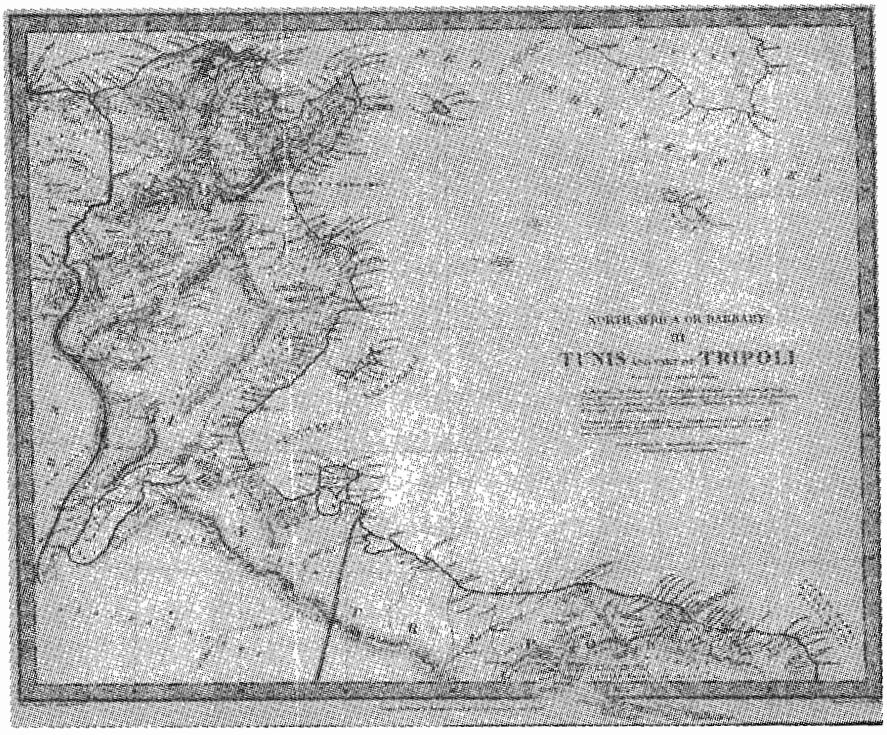

البلاد التونسيّ مثلما رسمتها بعض المصادر الإنكليزية خلال القرن 19[64]

64- Publié par, Baldwin & Gradock, Londres, Juillet 1836, *http://mitidja.free.fr/cartes/tunisie_1836.htm.*

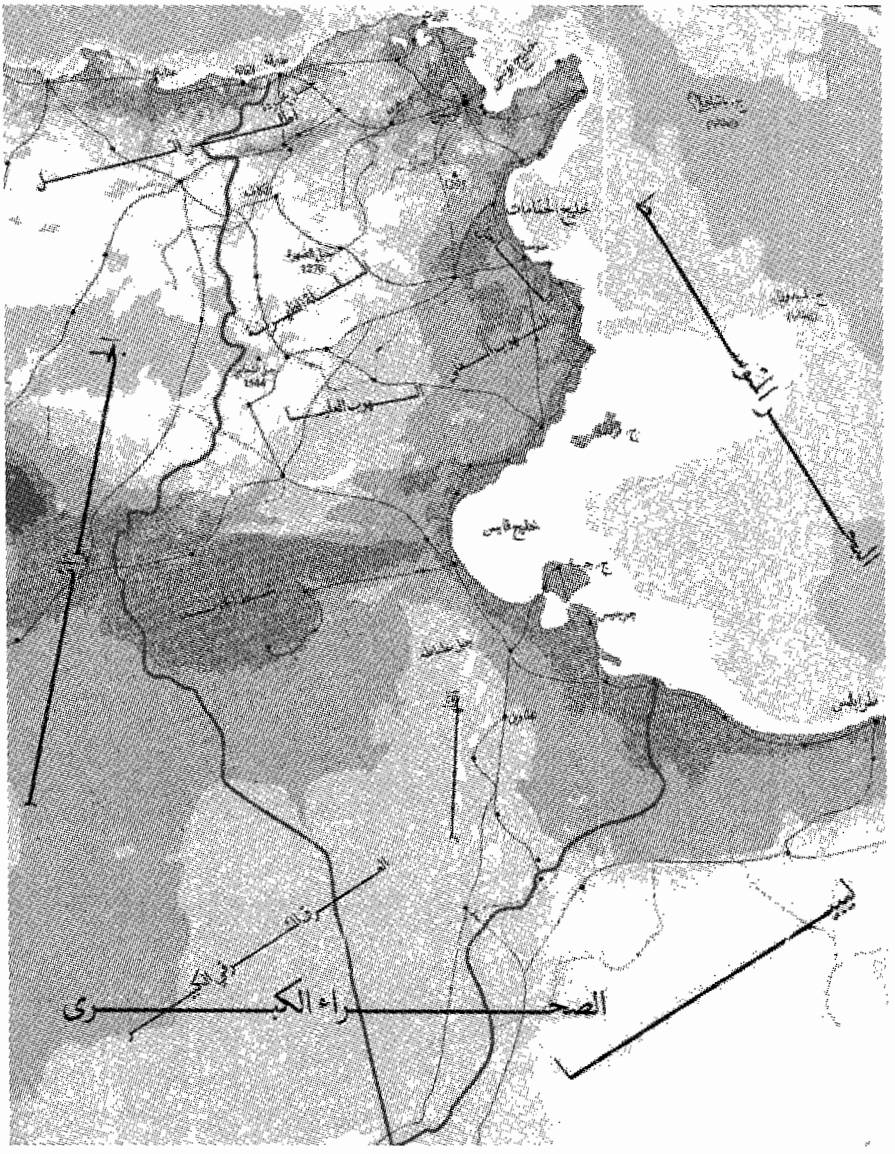

خريطة تضاريس البلاد التونسية[65]

65- نعتمد هذه الخريطة، حديثة العهد، للبلاد التونسيّة لتحديد المواقع بالنسبة للقارئ. أمّا الحدود السياسيّة فهي قد لا تطابق الواقع السياسي للإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة.
http://www.brooonzyah.net/vb/t63597.html

عندما زار Marmol شمال القارة الإفريقيّة في بداية القرن 16 كان النفوذ الحفصي يمتد من تخوم "موريتانيا القيصرية"[66] غربا وقسنطينة من الشمال الغربي إلى حدود مصر شرقا وسواحل البحر الأبيض المتوسط. أمّا جنوبا فالتراب التونسي كان يتوغل في الصحراء الكبرى إلى حدود منطقة الزاب وجبال الأطلس الصحراوي. وقد قسمها هذا الرحالة إلى "مقاطعات أربعة : قسنطينة وتونس وطرابلس والزاب[67]. إلاّ أنّه اكتفى بوصف أكبر المدن الساحلية وأهمل المناطق الداخلية "للمملكة التونسية" الّتي اعتبرها "مناطق شاسعة شبه قاحلة تتنقل فيها مجموعات كبيرة من أشدّ العرب والأفارقة بطشا، فقد عجز ملوك وسادة هذه البلاد على ترويضهم وضمهم إلى صفوفهم وإرضائهم..."[68].

اقتصرت آثار الرحّالة الأوروبّيين في بداية الفترة الحديثة إذن، على وصف شامل لكامل تراب البلاد التونسية وتتبع المسالك التجارية الصحراوية أو الساحلية الرابطة بين المدن التونسيّة ومختلف مناطق البحر الأبيض المتوسط أو الداخلية الرابطة بين المشرق والمغرب والمارة عبر أكبر المدن. وأكّدت كتب الرحّالة من ناحية ثانية على الفراغ العمراني للمناطق الداخلية نظرا لفقر مناطق السباسب وسفوح الجبال الّتي مثلت مجالا مفتوحا للبدو الرحّل المتنقلين حسب الفصول من الجنوب نحو الشمال ومن الغرب نحو الشرق ذهابا وإيّابا. ولعلّ أبرز ما يلفت الانتباه هو المشهد الجغرافي الموحش لهذه المناطق القاحلة التي تضمن عيش "مجموعات متوحشة من البدو الرحل تتنقل مع بعضها بين أرجاء البلاد في شكل جماعات صغيرة أو قبائل كبيرة...". وحاول Marmol، شأنه في ذلك شأن معظم الرحّالة الأوروبيّين، أن يعلّل وجود هذه المساحات الهائلة من الأراضي القاحلة في مناطق كانت قديما آهلة بالسكان. فاعتبر أنّ "العرب خرّبوا معظم المدن الرومانية القديمة عندما قدموا إلى إفريقيّة دون أن

66- حدود هذه المنطقة غير واضحة وقد ورث الرحالة الأوروبيّون هذه التسمية عن المؤرّخين الرومان للدلالة على المناطق الوسطى لشمال القارة الإفريقية، ما يقابل حاليا الجزائر.

67- Marmol, *L'Afrique de Marmol*, *op.cit.*, t.1, p.430.

68- *Ibid.*, p.432.

يهتمّوا بإعادة تعميرها حتّى يتمكنوا من التنقل بحرّية بقطعانهم ويغنموا بكلّ راحة من خيرات الأرياف. وبذلك اندثرت هذه المدن نهائيّا وبقيت بعض الآثار لتروي ذاكرة تلك الحضارات الغابرة..."[69].

من خلال هذا المشهد تتراءى لنا "البادية التونسية" بعنصريها الجغرافي والبشري في علاقة وطيدة بين الإنسان والإطار الطبيعي. فقد فرض البدو الترحال كنمط عيش معادٍ "للعمران" على امتداد مراحل تاريخ شمال إفريقيا بصفة عامة. وإن تمكن الرومان من صدّ القبائل البدوية البربرية وإجبارها على الاستقرار داخل المدن التي شيّدوها أو التراجع إلى تخوم الصحاري، فإنّ الهجرات المتتالية للقبائل العربية لشمال القارة الإفريقية فرضت نمط العيش البدوي الشرقي الذي جلبته معها من فيافي الجزيرة العربية ونشرته في كامل المنطقة وتحديدا في ربوع إفريقيّة وتأقلمت في إطار جغرافي كان من قبل موطن البدو البربر.

ولعلّ التفسير الذي قدمه Marmol وغيره من الرحالة الأوروبيّين والمتعلّق بالفراغ العمراني والحضاري لمساحات شاسعة من البلاد التونسية يوافق النظرية الخلدونية في "أنّ العرب إذا تغلّبوا على أوطان أسرع إليها الخراب". وقد أطال صاحب المقدّمة شرحا لأسباب ذلك، إذ أنّ البدو العرب، حسب رأيه "أمّة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار خلقا وجبلّة... وهذه الطبيعة منافية للعمران وناقضة له فغاية الأحوال العادية كلّها الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له. فالحجر مثلا إنّما حاجتهم إليه لنصب أثافي القدر فينقلونه من المباني ويخرّبونها عليه ويعدّونه لذلك والخشب أيضا إنّما حاجتهم إليه ليعمّدوا به خيامهم ويتّخذوا الأوتاد منه لبيوتهم لذلك صارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران..."[70].

وهي نفس الصورة الّتي يقدّمها لنا ابن أبي دينار عن طبيعة "الأعراب" في عهد الدولة الحفصية إذ يذكر أنّهم " كانوا في أولّ الأمر أشدّ شوكة

69- *Ibid.*, p.444.

70- ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدمة**... ص 187.

واستحوذوا على جلّ البلاد فكان يعسر الخلاص معهم... وأهل الجبال غالبهم عصاة، وكان صاحب المحلّة يعاملهم بالمخادعة والرفق والقواد يتعقبونهم..." [71]

يبدو إذن، أنّ بداوة القرون الوسطى وبداية الفترة الحديثة القائمة على نمط عيش قوامه التنقل وعدم الاستقرار، ارتبطت مباشرة بمجال جغرافي شاسع سمح للمجموعات البدوية فرض الترحال والتنقل بكلّ حرية من أقاصي البلاد إلى أدانيها دون قيود وضوابط. بل شكّلت خطرا على "العمران" منذ أن أظهر البدو عصيانهم للسلطة السياسية المركزية المعادية للحرية المفرطة. إذ فرض عليهم نمط العيش البدوي "التقلب في الأرض وحتّم عليهم الالتجاء إلى القوة للدفاع والهجوم. كما أنّ الحاجة دعتهم دائما لحمل الأسلحة: ففي المناطق القاحلة، تصبح بركة ماء أو مرعى مدعاة للحرب والتخريب... "[72].

ومع بداية الفترة الحديثة، تغيرت الحدود الجغرافية للبلاد التونسية بتقلّص مساحتها[73]. فقد أصبحت الإيالة تمتدّ من "الجبال الفاصلة بين الجزائر وتونس من الناحية الغربية الشمالية. أمّا جنوبا فتفصل بين البلدين سلسلة جبال الأطلس الّتي تتوغل في الصحراء. أمّا شرقا فيحدّ الإيالة التونسية البحر المتوسط وطرابلس من الجنوب الشرقي"[74].

انطلاقا من الوصف الّذي قدمه Shaw للإيالة التونسية في بداية القرن 18 قسّم الرحّالة الأوروبيّون البلاد إلى إقليمين اثنين : "الإقليم الصيفي والإقليم

71- ابن أبي دينار **المؤنس**... ، ص 228.

72- Cuoq (J), *Venture De Paradis...op.cit.*, p.51.

73- لم تكن للبلاد التونسية حدود واضحة بل كانت أقرب منها إلى "الأطراف" أو "التخوم". ولم تضبط الحدود الجزائرية التونسية إلاّ إثر الاتفاق الذي أبرم بين الحكومتين سنة 1628، إلاّ أنّ القبائل الحدودية لم تحترم قطّ هذه الحدود.
انظـــر :
Bachrouch (T), *Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au XVII^e siècle*, PUT, Tunis 1977, p.162.

74- Marcel (J.J), *Tunis, description de cette Régence par Louis Frank*, Paris 1850, p.6.
تولى *Louis Frank* خطة الطبيب الخاص لحمود باشا باي ما بين 1804 و1808. ثم ترك مذكراتٍ تولّى صديقه J.J Marcel نشرها.

الشتوي"[75]، كما يشير إلى ذلك Frank ، الّذي يؤكّد على أنّ "الإيالة التونسية لم تعد تقسّم إلى مقاطعات مثلما كان عليه الحال من قبل بل إلى إقليمين كبيرين : الإقليم الصيفي والإقليم الشتوي"[76]. ويقدّم Shaw وصفا دقيقا لهذين الإقليمين يتبيّن من خلاله أنّ المجال الّذي تنتشر فيه البداوة اتّخذ شكلا مغايرا لما كان عليه في الفترة الوسيطة بحكم تطور نمط عيش البدو. فالإقليم الصيفي الشمالي "يحتوي على عدد كبير من المدن والقرى والدوار. كما أنّه يبدو على غاية من الخصوبة ورفاهة العيش. فلنقل أنّ كلّ شيء يبدو زاهيا والأرياف ضاحكة حول منطقة "فريڤة"، أي البلاد الواقعة ما بين الكاف وباجة. إلاّ أنّ المساحات الداخليّة للإقليم الصيفي فهي أقلّ خصوبة وتصعب زراعتها لأنّ عديد الهضاب والسباخ تقطعها..."[77].

أمّا الإقليم الشتوي الجنوبي فهو أقلّ خصوبة وسكانا رغم كبر مساحته. "فمناطقه الساحليّة في معظمها جافة وترابيّة...ويتكون داخل البلاد في غالبيّته من هضاب وسباخ، ما عدا السهول الفيضية للأودية، بما في ذلك منطقة القيروان، فهي منخفضة ومتعدّدة السباخ... أمّا خلف جبال القصرين، وصولا إلى منطقة فرنانة وجنوبا إلى تخوم الصحراء فنحن نقطع مئات الأميال من الأراضي الجدباء"[78].

ومع ذلك، تؤكّد كتب الرحّالة الّذين عاصروا Shaw أنّ هذه المناطق، رغم قساوة طبيعيتها آهلة بالسكان وتتجمّع فوقها عديد القرى والدوّارات ويتعاطى سكانها شتى الأعمال الفلاحية والتجارية. "فالقبائل الكبرى تتنقل داخلها لزراعة الحبوب وبيع خرفانها ونتاج حليبها وصوفها أو الأغطية الّتي تصنعها نساؤها وتشتري ما هي في حاجة إليه من الأواني الفخارية. ثم تتوغل ثانية في المناطق الصحراوية حيث تعيش على الصيد والحبوب الّتي اقتنتها وحليب نوقها.... والمناطق المتاخمة للصحراء ليست فارغة تماما مثلما يظنّ البعض،

75- Shaw (T), *Voyages...*, *op.cit.*, p.175.
76- Marcel (J.J), *Tunis... op.cit.*, p.75.
77- Shaw (T), *Voyages...*, *op.cit.*, p.175.
78- *Ibid.*, p.236.

فهي تضمّ عديد المدن والقرى المحصّنة التي تسكنها مجموعات لا تحصى من العرب[79] الرحل"[80].

واصل رحالة القرن 19 الاعتماد على هذا التقسيم الثنائي في تقديمهم للبلاد التونسية وركّزوا بالدرجة الأولى على التطور الّذي شهدته المناطق الداخلية الّتي تبدو من خلال وصفهم آهلة بالسكان. وتعتمد حركيتها الاقتصادية بالدرجة الأولى على النشاط الفلاحي، غراسة وتشجيرا وتربية للماشية. إضافة إلى تزويد المدن الكبرى بحاجياتها من المواد الغذائية وبعض المواد الأولية على غرار منطقة الوسط التونسي المجاورة للقيروان الّتي "تزهو خلال السنوات الممطرة فتجلب مناطق الرعي الخضراء القطعان العديدة الّتي تقودها القبائل العربية..."مما يخلق حيوية غير معتادة على أبواب مدينة القيروان. "فالبدو يموّلونها بما تحتاجه من مواد غذائية وهي بدورها تمدّهم بما هم في حاجة إليه من الصّناعات اليدوية"[81]. أو المناطق المجاورة لمدينة الكاف الحدودية حيث تقام الأسواق الأسبوعية على غرار السوق الّتي تنظم كل يوم سبت قرب قرية "زوارين" حيث "يجتمع عدد لا يحصى من العرب يتوافدون من مشارف القرية أو من مناطق نائية لبيع الخيول والماشية. كما يعرض الباعة الصوف والقمح والشعير وكلّ منتوجات المنطقة. وتعرض نساء قرية زوارين ما تنتجه من أواني فخارية"[82].

كما يتحدّث Filippi من ناحية أخرى عن ثراء وخصوبة "الريف التونسي" الّذي ينتج مختلف أنواع الخضر والغلال إضافة إلى الزراعات الشاسعة والغراسات البعلية والسقوية[83].

79- ويعني بالعبارة "الأعراب".

80- Cuoq (J), *Venture De Paradis, Tunis et Alger...op.cit.*, p.51.

81- Guérin (V), *Voyage archéologique..*t.2, *op.cit.*, p.326.

82- Monchicourt (C), *Documents historiques sur la Tunisie. Relations inédites de Nyssen, Filippi et Calligaris (1788, 1829, 1834)*, Paris 1929, p.204.

شغل الرحالة Filippi منصب قنصل مملكة سردينيا بتونس من 1825 إلى 1830.

83- *Ibid.*

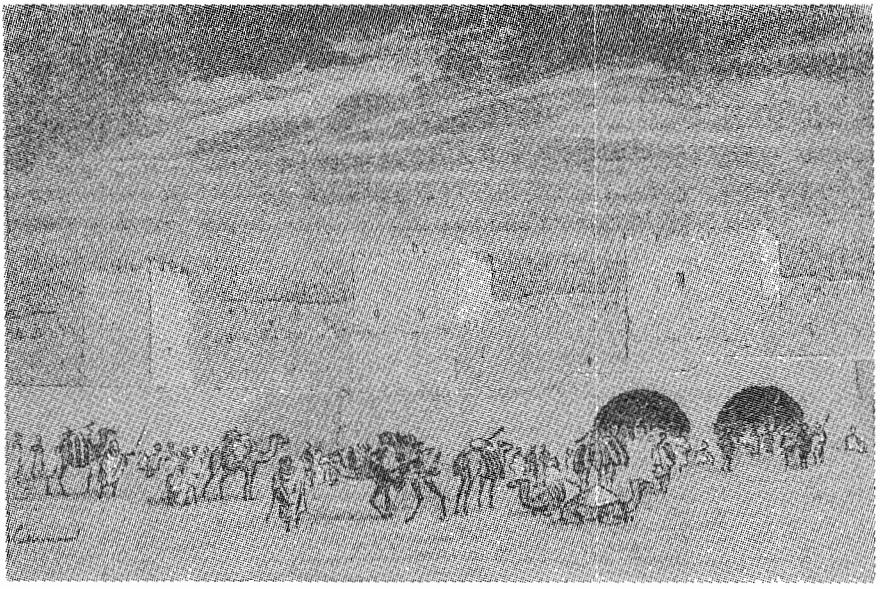

تجارة البدو أمام أبواب مدينة صفاقس في نهاية القرن 19[84]

من خلال ما عرضته آثار الرحالة الأوروبيّين نلاحظ أنّ حواضر الشريط الساحلي التونسي والمدن الكبرى الداخلية خلقت على امتداد الفترة الحديثة أريافا أصبحت تتعامل معها في دورة اقتصادية يتعاضد فيها المركز بالمحيط. وإن أبقت القبائل المتنقلة من مناطق نائية على نمط عيشها البدوي وعاداتها وأعرافها البدوية فهي لجأت في نهاية المطاف إلى الاستقرار في مكان واحد حيث "أقامت خيامها وبحثت عن موارد عيش حرمتها منها المناطق الجنوبية"[85]. ويعود ذلك إلى التحوّل الّذي شهدته هذه المناطق، نظرا لارتباطها المباشر بنمط العيش البدوي/القبلي الّذي اعتمد منذ بداية العصر الحديث على ملكية الأرض. فأدّى مباشرة إلى استقرار قبائل الشمال والوسط التونسي. وقد وافق هذا التطور التحولات السياسية التي طبعت الفترة الحديثة

84- Lallemand (Ch), *La Tunisie pays de protectorat français*, Paris 1892, p.61.

85- Guérin (V), *Voyage archéologique*..t.1, *op.cit.*, p.423.

بظهور"مصطلحي الوطن والبلاد في تعبير الفرق والعروش وتشكل الهوية التونسية..."[86].

ب- البدو والسلطة خلال القرن 19 :

انطلاقا من القرن 17 تغيرت المعطيات السياسية للبلاد التونسية وأظهرت كلّ الأنظمة التي تتالت على الحكم رغبة ملحّة في إخضاع القبائل البدوية لمشيئتها وضبط مجال تحرّكها. فروّجت قاعدة "التخريب" الّتي "جبل عليها الأعراب" منذ الزحف الهلالي. وهي قاعدة اعتمد عليها أصحاب السلطة لتذنيب الأعراب على "تخريب المناطق الآهلة بالسكان" وذلك لغايتين : لتسويغ سياسة الترهيب المتبعة ضدّهم من جهة ولفرض الاستقرار والسيطرة عليهم وإجبارهم على دفع الجباية الّتي تمثل أحسن تعبير لتبعيّتهم للسلطة في تونس، من جهة ثانية[87]. فقارئ المؤنس لابن أبي دينار يخال له أنّ همّ البايات المراديّين الوحيد هو تتبّع القبائل المستعصية من شمال البلاد إلى جنوبها و"كسر شوكتها" وخاصة تلك التي اتخذت الجبال الحدودية الفاصلة بين الجزائر وتونس حصنا مانعا لها أو تلك الّتي كانت تعتمد سياسة الكرّ والفرّ وتتوغّل في القفار تحاشيا لمواجهة القوات النظامية. وقد ركّز كلّ الرحالة الأوروبّيين على هذه العلاقة العدائيّة بين السلطة والقبائل البدوية منذ أن سجّل Marmol في بداية الفترة الحديثة "مقاومة القبائل البربرية الجبلية في منطقة قسنطينة والحدود الجزائرية التونسية للأتراك"[88] إلى عشية الاحتلال الفرنسي عندما ذكر طبيب

86- الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث...**، نفس المرجع، ص 58.

87- منع الاتفاق المبرم بين الحكومتين الجزائرية والتونسية سنة 1628 "أن يتتبّع جباة الضرائب البدو الهاربين عبر الحدود. ويعود حقّ جمع الضرائب للدولة المستقبلة". ذلك ما سمح لبعض القبائل بأن تغتنم وضعيتها غير القارة بالمنطقة الحدودية بأن تتنقل بين الدولتين، هروبا من دفع الجباية. Bachrouch (T), *Formation sociale barbaresque...op.cit.*, p.158.

88- أشار إلى ذلك Marmol في حديثه عن القبائل المستقرة في حوض واد مجردة في الشمال التونسي الّتي "فقدت جزءا كبيرا من تحضرها المعتاد نظرا لسياسة ملك تونس القمعية تجاهها... فوجهت غايتها في الحياة نحو السرقة وقطع الطرق".

Marmol, *L'Afrique de Marmol*, t.1, p.69.

المحلّة الألماني Gustav Nachtigal أنّ "البدو الرحل ذوي الخيام من الوبر لا يضمرون خيرا للحكومة..."[89].

ولم تكن الجباية، في حقيقة الأمر، هي الدّاعي الأوحد لوقوف البدو أمام السلطة المركزية. فهم جبلوا على "الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران" مثلما أشار لذلك ابن خلدون[90]. ولعلّ التعليل الّذي قدمه بعض شيوخ "القبائل الجبالية" لـــ Pellissier عندما سألهم عن سبب "حملهم السلاح في وجه الحكومة والحال أنّ قيمة الجباية المطلوبة ضئيلة"، هو أحسن دليل على طبيعة البدو الثائرة. فقد علّلوا عصيانهم بأنّهم إذا دفعوا الضريبة سنة واحدة دون معارضة "قد يعمد الباي لمضاعفتها بالسنة المقبلة. كما أنّه من العار أن يدفع جبالي الضريبة إبّان تلقيه الأمر دون معارضة". ويضيف نائب القنصل الفرنسي بأنّ "تعنّت بدو منطقة جبال خمير هي طبيعة كلّ البدو أينما حلّوا، ففلاحو الصعيد المصري لا يذعنون لدفع الميري[91] إلاّ إذا تعرّضوا للضرب المبرّح بالعصي"[92]. إلاّ أنّ سياسة الترهيب الّتي اتخذتها مختلف الحكومات تجاه العناصر البدوية، منذ انتصاب حكم الأتراك بتونس، هي الّتي كانت غالبا تشحذ طبيعتهم التواقة للحرية وتدفعهم للوقوف في وجه الحملات الموجهة نحوهم لإرضاخهم و"كسر شوكتهم"[93].

تمثلت بؤرُ العصيان خلال القرن 19 في المناطق المتاخمة للحدود الجزائرية التونسية والصحراوية نظرا لوعورتها في وجه الجند وصعوبة اقتحامها. فمنذ بداية القرن 18 لاحظ Shaw أنّ "المجموعات القاطنة بالمناطق المتاخمة للصحراء والبدو الرحّل بصفة عامة، أحرار يصعب إجبارهم على دفع

89- منير الفندري، **البلاد التونسية فيما بين 1863-1868 من خلال رسائل الطبيب الألماني غوستاف نختغال Gustav Nachtigal**، منشورات مركز النشر الجامعي، تونس 2003، ص 138.

90- "...عوائد التوحش وأسبابه فيهم صار لهم خلقا وجبلّة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من خروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة..." **المقدمة**... ص 187.

91- وهي ضريبة فرضت في العهد العثماني على الأرزاق بحسب المحصول وإنتاجه.

92- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis*, Paris 1853, p.43.

93- Léon (l'Africain), *De l'Afrique…op.cit.*, t.2, p.28.

الضرائب لأنّهم دائمو الحذر وعلى أهبة الفرار أو الالتجاء إلى القفار كلّما علموا بقدوم الحملة"[94]. وفي نفس الفترة تحدّث Peyssonnel عن سكان مناطق البلاد الشمالية. وحسب رأيه "ترضخ بعض هذه الشعوب لحكم الباي والبعض الآخر يعيش في حرّية. وتدفع المجموعات التي تسكن السهول الضرائب كما سكان المناطق الّتي يسهل على جيوش الأتراك اقتحامها. أمّا سكان الجبال المنحدرة التي يعسر بلوغها، فهم مستقلّون عن البايات في تونس أو في الجزائر...ولا يدفعون أيّة ضريبة..."[95].

وعن نفس القبائل الشمالية القاطنة بالمناطق الحدودية الجزائرية التونسية يذكرPellissier في بداية القرن 19 أنّ "وضعيتها غير مستقرة منذ أمد طويل. فهي تذعن تارة للإيالة التونسية وتارة أخرى للإيالة الجزائريّة. وفي بعض الأحيان، لا تنضوي تحت أي حكم. ذلك ما حدا بالحكومة الاستعمارية بالجزائر منذ سنة 1836 أن تدرس المسألة الحدودية. وانتهى الأمر بأن قامت السلط الفرنسية برسم الحدود بين الجزائر وتونس، من طرف واحد، انطلاقا من منطقة القالة عبر الجبال الشمالية دون أن يبرم أي اتفاق بين البلدين..."[96].

لكن يبدو أن ظاهرة العصيان لم تفتر خلال القرن 19، بل آل الأمر إلى أشكال أرقى من تمرّد البدو في وجه سلطة البايات إذ أصبح الحديث عن انتفاضات عمّت أرجاء الإيالة التونسية دون استثناء. ويعود ذلك بالدرجة الأولى لسياسة البايات الموغلة في فرض "المغارم"[97] على السكان وتحديدا القبائل الداخلية[98]. وقد أكّد صاحب الإتحاف هذا الأمر عديد المرات، أبرزها الفوضى

94- Shaw (T), *Voyages..., op.cit.*, p.4.

95- Valensi (L), *J.A Peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis...op.cit.*, p.135.

96- Pellissier (E), *Description...op.cit.*, p.44.

97- يذكر ابن أبي الضياف أنّ بعض المسؤولين في أعلى مراتب الدولة يدعون دائما إلى إثقال كاهل "الأعراب" بالمغارم على أساس أنّ "العربان إذا كثر مالهم ساء حالهم، وفي ثقل الجباية خضد لشوكتهم وكبح لهم عن العصيان" ويضيف أنّ "بعض الأوغاد السفهاء من جهلة الترك" يتندّرون بمثال تونسيّ "العربي خذ ماله واقطع راسه" **الاتحاف**...ج 5، ص 129.

98- يتحدّث محمد الهادي الشريف في مقاله حول " حركات الفلاّحين في تونس خلال القرن التاسع عشر" عن " أزمة حادة تناقضت فيها مصالح آلة حكم متطورة ورواسب نظام اقتصادي بال".
Cherif (M.H), "Les mouvements paysans dans la Tunisie du XIX^{è} S."...*op.cit.*, p.47.

الّتي عمت منطقة الأعراض بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية سنة 1840. ففي تلك السنة "وقع شيء من بوارق العصيان، خاف الباي من سريانه في المملكة لاتحاد السبب. وذلك أنّ هذا الباي (المشير أحمد باي 1838-1855) لما صرف عنايته إلى تكثير العسكر لزمه (اضطرّ) زيادة المصروف ضرورة، فرتّب مغارم على ما يباع من الطعام والبقول ونحوها، تعرف بالمحصولات...رتّبها وعمّمها في المملكة وأسواق العربان والتزمها ملتزمون وقع التغافل عنهم[99]...فاعتمد متولي لزمة الأعراض الإجحاف فيها حتّى قيل إنّه يطلب المحصول على دفن الميت فهجم عليه بعض العامة وقتلوه[100]...ولما بلغ الخبر الباي وتحقّق عنده أنّ سائر عربان المملكة استحسنوا ذلك وتآمروا عليه، تلافى الصغير قبل أن يكبر والقليل قبل أن يكثر فنهض بنفسه إلى الأعراض يجرّ وراءه عرمرما من العسكر النظامي..."[101].

بقي الصراع إذن، سجالا بين السلطة المركزية والقبائل البدوية طوال الفترة الحديثة واتخذ أشكالا مختلفة من حملات تأديبية تقوم بها الجيوش النظامية ضدّ القبائل المتمرّدة إلى حروب طويلة المدى يشنّها البايات ضدّ انتفاضات شاملة جمعت في ردهات من القرن التاسع عشر عديد القبائل المتضامنة ضدّ الحكم المركزي[102]. ونتيجة لهذا الصراع الدائم بين بدو يتوقون إلى الحريّة والترحال الدؤوب دون قيود ونظام حكم قائم على مبدأ "الأمن الجماعي" والاعتراف بسيادة صاحب السلطة، مما يقتضي الاستقرار والانخراط

99- لاحظ De Paradis منذ نهاية القرن 18 أنّ " الدولة تفرض الضرائب عن طريق لزمة يدفعها قايد المنطقة مسبقا ثمّ يتولّى جمعها معتمدا كلّ طرق القمع والقوة. وتتغافل الحكومة عن جور عمّالها ذلك ما يجعلهم غالبا في موقع قوة..."

Cuoq (J), *Venture De Paradis...op.cit. p.54.*

100- في نفس الفترة، وغير بعيد عن منطقة الأعراض، يذكر ممثل القنصلية الفرنسية Pellissier أنّ "أعراب المثاليث اشتهروا بطباعهم الغليظة فكثيرا ما يهاجمون جباة الضرائب ويهينونهم. وقد قتلوا مؤخرا أحدهم، لذلك أصبحت السلطة تهابهم وتتعامل معهم بلطف" Pellissier (E), *Description...op.cit.,* p.132.

101- ابن أبي الضياف، **الإتحاف...نفس المرجع، ج 4**، ص 44.

102- أشهر هذه الانتفاضات هي الّتي هزّت الإيالة التونسية سنة 1864 وعرفت بـــ"انتفاضة علي بن غذاهم". انظر **الاتحاف**...ج 5، ص 127.

في صلب المجموعة، تمكن الأتراك، على امتداد السنين، من السيطرة على معظم المناطق الحضرية للبلاد التونسية. وقد قبل سكان هذه المناطق بدورهم الانصياع إلى حكم البايات وأعلنوا ولاءهم لأصحاب السيادة عن طواعية أو مكرهين على ذلك. كما تفاعلوا مع المعطيات الّتي يمليها عليهم الاستقرار من أعمال وطباع هادئة. فحسب شهادة بعض الرحالة الأوروبيّين، كانوا "يمتازون بنزاهتهم وإن كانت لهم مساوئ توازي محاسنهم كالتخاذل وقلّة الحيوية[103]... فالجرائم قليلة في الأوساط الحضرية بل هم غالبا ضحية مهاجمة جيرانهم..."[104]. أمّا العرب "ذوي الخيام، فهم جريؤون ولهم حيوية فائقة...حياتهم قليلة الهدوء، ما عدا سكان المناطق المجاورة للقيروان، ولا يتحمّلون سياسة القمع الّتي تتوخّاها السلطة تجاههم..."[105].

وأفضل دليل على استقرار أكبر نسبة من القبائل التونسية خلال القرن 19 هو تقلّص الحملات التأديبية ضدّ العصيان البدوي[106] وقبول معظم القبائل مبدأ دفع الجباية بطرق سلميّة كلّما مرت بهم المحلّة الّتي كانت تخرج من العاصمة تحت قيادة الباي الحاكم أو "باي الأمحال"[107] للقيام برحلتي الصيف والشتاء في كلّ سنة. فتتوجه المحلّة شمالا في الصيف لاستخلاص الجباية على المحاصيل الزراعية وجنوبا في فصل الشتاء لاستخلاص الجباية على إنتاج الزياتين والتمور.

103- ذكر ابن خلدون في باب " العمران البشري والأمم المتوحشة..." من المقدمة أنّ البدو "كلما نزلوا الأرياف وتفنّقوا النعيم وألفوا الخصب في المعاش ، نقص من شجاعتهم...فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبيّة والبسالة ويتنعّمون فيما أتاهم الله من البساطة..." **المقدّمة...** ص 175.

104- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis... op.cit.,* p.330.

شغل Pellissier منصب نائب القنصل الفرنسي بتونس ما بين 1843 و 1848.

105- *Ibidem.*

106- في ما عدا فترات الانتفاضات العامة الّتي كانت تشمل الحواضر والأرياف دون استثناء.

107- يتولّى عادة وليّ العهد الخروج على رأس المحلّة وجمع الضرائب أو أحد أفراد عائلة الباي ومقربيه.

وإن اختصرت المصادر المحليّة الحديث عن المحلّة في ذكر خروج أشهرها وما قامت به من ردع للقبائل لاستتباب الأمن، فإنّ آثار الرحّالة الأوروبيّين تطالعنا بأطرف الحديث عن الحملات الّتي تقوم بها المحلة لاستخلاص الجباية ولفرض السيادة على القبائل المستعصية. فابن أبي الضيّاف لم يتعرّض لخروج المحلّة إلاّ مرارا قليلة على غرار محلّة "الخمس بايات" الّتي قادها حمّودة باشا على إثر تولّيه الحكم والّتي اصطحبه فيها أخواه عثمان ومحمّد المأمون وابنا عمّه محمود وإسماعيل. ولم يذكر عن هذه المحلّة إلاّ ما حقّقه حمودة باشا من بطولات بأن "مهّد الوطن وأمّن السبل وغلّ أيدي المعتدين وأرهب العمّال واستوفى الجباية"[108]. في حين يقتفي Desfontaines[109] أثر نفس المحلّة ويمدّنا بدقيق التفاصيل عن الأحداث الّتي تخلّلت مدّة رحلتها بمناطق الجنوب التونسي[110].

ومن حسن الحظّ كذلك، أنّ عددا آخر من الأوروبيّين تواجد خلال القرن التّاسع عشر إلى جانب بعض البايات عند خروجهم على رأس محلاّتهم. وقد وافانا هؤلاء بوصف دقيق لخروج المحلّة من العاصمة في شكل احتفالي إلى حين عودتها. ولنستمع لـــ Flippi في أطرف ما ذكر عن المحلة الّتي قادها حسين باي (1835/1824) بنفسه. فإضافة إلى الحديث المطوّل عن انطلاق المحلّة من تونس العاصمة في موكب بهيج، يمدّنا القنصل الإيطالي بتفاصيل أدقّ عن يوميّات القافلة وهي تقطع الوسط التونسي تحديدا بير (بئر) الحفي حيث توقّفت للاستراحة : "...عندما كانت المحلّة في منطقة السونيّة شوهد هلال شوال فأطلق الفرسان عيارات ناريّة إعلانا لعيد الفطر "البيرم" (9 أفريل 1829)... وفي الغد صباحا استقبل الباي التّهاني من قبل أعيان القيادة. وأمام الجميع أقيمت، مثلما يقع في قصر

108- ابن أبي الضياف، **الإتحاف... نفس المصدر**، ج 3، ص 20.

109- قدم إلى تونس في مهمّة علميّة. كما أنّه شغل خطّة طبيب الباي ما بين 1783 و1786.

110- Dureau de La Malle, *Fragment d'un voyage dans la Régence de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786*, t2, Paris 1838.

باردو، المصارعة اليونانيّة وصراع السّيوف[111]، كلّ ذلك تحت قرع الطّبول والمزمار. وفي المساء، مرّ أمام الباي فرسان قبيلة الهمامّة وعددهم 500 يتقدّمهم القايد. تقدّم الفرسان في صفّين وعند وصولهم أمام مدخل الخيمة أطلق كلّ فارس عيارا في الفضاء أو على الأرض ودام الاحتفال أكثر من نصف ساعة. ثمّ تقدّم ستّة جمال مزركشة بنوع من الزّرابي الحمراء على ظهورها نساء مستورات يغنّين أغاني وطنيّة على شرف الباي وبين الأغنية والأخرى تنطلق الزّغاريد من حناجر الوصيفات...ثمّ تقدّمت مجموعة أخرى من الفرسان يركبون أجمل الخيول الّتي ازدانت بزرابي من الحرير تغطّي ظهورها وتترامى على مؤخّرتها إلى حدّ سيقانها. ويتقدّم الموكب الكربسون"[112].

ساهمت القبائل المخزنية[113] بقدر وفير في مساندة وإنجاح الحملات التي كانت تقوم بها المحلة سنويا بين الشمال والجنوب. وقد لفت انتباه جلّ الرحالة منذ القرن 18 الدور الخطير الّذي تقوم به هذه القبائل بتقديم مدد عسكري للمحلّة يتمثل في أقدر فرسانها و"لوجستي" في ضبط مواطن القبائل الأخرى مثلما لاحظ ذلك العالم النباتي Rebatel في منتصف القرن 19[114]. فالبلاد تنقسم حسب رأيه "إلى حزبين متعاديين : الباشية أو العرب الأحرار وهم البدو

111- وهو استعراض بقي إلى يومنا هذا يتماها خلاله فارسان بالصراع بالسيوف أو بالعصيّ ويسمّى "الزّقارة".

112- تستعمل العبارة للدلالة على أجمل الخيول العربيّة الّتي يمتطيها أحد أتباع الباي والّتي تحلّى بغطاء جميل للغاية. يسبق الكربسون جواد الباي ويعطي الإشارة للموسيقى العسكريّة ويحمل الفارس الّذي يمتطيه سنجقا أخضر "سنجق شريف" كما يسمّى كذلك "سنجق المراحل". Monchicourt (C), *Documents historiques sur la Tunisie...op.cit.*,p.234

113- تعود جذور المؤسسات المخزنية للعهد الحفصي وورثتها السلطة التركية. وتعتبر المخزنة "عقدا" معنويا يربط بين السلطة وبين بعض القبائل يقتضي مبدأ المشاركة النظرية في تسير العمل السياسي داخل البلاد ويفضي إلى مساندة هذه القبائل الموالية للسلطة عسكريا لإخضاع القبائل المعارضة مقابل امتيازات مادية تتمتّع بها دون غيرها كعدم دفع الضرائب. انظر، الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث...**، نفس المرجع، ص 112.

114- قدم إلى تونس في شهر مارس 1874 وقام برحلة عبر الوسط والجنوب التونسي.

الحقيقيّون والحيسنية أو الحزب الحكومي[115]. تمثل قبيلة بني زيد الكبرى الحزب الأول وتمثل قبيلة الهمامة الحزب الثاني. وحول هاتين القبيلتين تنضوي باقي القبائل الأخرى حسب أفكارها وحسب مصالحها. وأهمّ القبائل الّتي تنتمي إلى صفّ بني زيد، المثاليث قرب صفاقس والسواسي ما بين سوسة والقيروان وحازم ما بين سيدي مهذب وقابس وماجر والفراشيش ما بين تونس والحدود الجزائريّة. أما حول الهمامّة فتصطفّ قبائل جلاص قرب القيروان وورغمّة قرب الحدود الطرابلسيّة والعكّارة بجرجيس ونفّات ما بين عقارب وأولاد البان وأولاد عيّار ما بين الكاف والحدود الجزائريّة. كما يجد كلا الصفّين تحالفات في المدن الكبرى. فنصف مدينة قابس ونصف منطقة الجريد والساحل يتحالف مع بني زيد ونصف المدن الأخرى بما في ذلك صفاقس يتحالف مع الهمامة. ولا يجب أن نعتبر موالاة صفّ للباي اعترافا كلّيا بسلطته دون معارضة. لا شيء يدلّ على ذلك، فالحكومة لا تساند الهمامّة إلاّ لمقاومة بني زيد. وهكذا يعيش أصحاب السلطة في أمن وسط هذه الصراعات الّتي لا تنتهي. إلاّ أنّهم، لا يعتمدون كثيرا على وفاء أنصارهم كلّما تعلّق الأمر برفع الضرائب، فالمشاكل تتأتّى من كلا الجانبين. فالأحرار يعتبرون رفضهم لدفع "العشر" لسلطة معادية لهم مشروعا بينما يعتبر الصفّ الثاني أنّه دفع بما فيه الكفاية من أرواح رجاله عند مقاتلة أعداء الحكومة ولا يجب أن يدفع أكثر من أمواله. فقبيلة ورغمّة، نظرا لأنّها من صفّ الهمامة، لا تدفع الضرائب إلاّ عندما يحلو لها وهي مع ذلك من أخطر القبائل..."[116].

115- تلخص العبارتان الصراع السياسي الدامي الّذي جمع بين حسين بن علي التركي مؤسس الدولة الحسينية وابن أخيه علي باشا. وانتهت الفتنة بمقتل حسين بن علي على يد ابن أخيه سنة 1740، "وانقسمت البلاد يومئذ إلى حسينية وهم القائمون بدعوة حسين بن علي، وإلى باشية وهم القائمون بدعوة علي باشا" وقد ساهم هذا الصراع السياسي في تدعيم ظاهرة انقسام المجتمع القبلي بين قبائل موالية للحكم المركزي وأخرى معارضة له إلى حدود الاستعمار الفرنسي. انظر، ابن أبي الضياف، **الإتحاف**... ج 2، ص 140.

116- Rebatel et Tiran « Voyage dans la Régence de Tunis, effectué en 1874 » *Nouvelles annales des voyages de la Géographie et de l'Histoire,* Paris 1923, p.306.

ولعلّ أشهر القبائل المخزنية هي قبيلة دريد. فقد ذكرت جلّ المصادر الغربيّة منذ القرن 18 أنّها "كثيرة العدد ومن أقوى القبائل كما أنّها لا تدفع أية ضريبة بل تتلقى من الحكومة مقدارا ماليا مقابل الخدمات العسكرية التي تقدمها لها. فهي توفّر للمحلّة آلاف الفرسان كلّما خرجت لرفع الضرائب..."[117]. ويمدّنا Pellissier بمعلومات أوفر حول هذه القبيلة التي "لا تمتلك مقرا محدّدا وتنقسم إلى عدّة فروع يقطن بعضها الجزائر في منطقة قسنطينة وينتشر أغلبها في كامل أرجاء شمال وغرب الإيالة. تقوم بعض فروعها برعي الغنم ويتعاطى البعض الآخر الأعمال الفلاحية كزراعة الحبوب أو يشتغلون كمزارعين "خماسة" في أراضي البيليك... ويساهم فرسانها[118] في المحلة المتجهة نحو بلاد الجريد ويغتنم هؤلاء الفرصة لمقايضة حبوب المناطق الشمالية التي يحملونها معهم بتمور منطقة الجريد..."[119].

2. القبيلة التونسية خلال القرن 19 :

يعتبر "وصف الإيالة التونسية لـــ Pellissier De Reynaud" أهمّ الأعمال الّتي قدّمها رحالة القرن 19 عن تونس. وتكمن أهمّية هذه الدّراسة في دقّة الوصف لكامل مناطق البلاد التّونسيّة على كلّ المستويات، سياسيّا واقتصاديّا واجتماعيّا. كما يمكن أن نعتبر الخريطة الّتي أوردها ممثل القنصلية الفرنسية في كتابه وثيقة هامّة لدراسة جغرافية البلاد التّونسيّة وتحديد مناطق استقرار مختلف القبائل. إلاّ أنّه عدل عن البحث في أصول هذه القبائل واكتفى بتعدادها حسب موقعها الجغرافي من الشّمال إلى الجنوب. ولعلّ ذلك يعود إلى صعوبة البحث الميداني. بل إنّ الخوض في البحث عن جذور القبائل التّونسيّة كان شبه مستحيل للأوروبّيين آنذاك إذ أنّهم كانوا يمرّون بمختلف المناطق مرورا سريعا ولم تكن السّلط المحلّية تسمح لهم بالسّبر أو الإحصاء. وما تحصّل عليه Pellissier في منتصف القرن 19 من معلومات عن المجتمع التونسي عموما لا يعدو أن يكون إلاّ خلاصة عدّة سنوات من التّحقيقات لدى

117- Cuoq (J), *Venture De Paradis…op.cit.* , p.56.

118- يحدّدهم Filippi في نفس الفترة بـــ 2500 فارس

Monchicourt (C), *Documents historiques sur la Tunisie…op.cit.*, 312.

119- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis… op.cit.,* p.185.

سكّان الإيالة وشيوخ مختلف القبائل، نظرا للمهمّة السّياسية الّتي اضطلع بها خلال إقامته بتونس، مع ما تحمله تحقيقاته من هنات ونقائص.

وعلى غرار اعترافات باحثيّ الفترة الاستعمارية والمعاصرين، فإنّ "التّعرّف على الخليط القبلي والجذور الإتنيّة لأيّ قبيلة ما يبقى صعب المنال "إذ أنّ كلّ القبائل استعربت من حيث اللّغة والدين والثّقافة منذ زمن بعيد... وحتّى أسماء العلم الّتي تعود إليها جلّ القبائل لا تعني شيئا حيث أنّ القبائل البربريّة الّتي لم تفرّ أمام الزحف الهلالي اندمجت مع القبائل الزّاحفة واتّخذت اسم مجموعة معينة..."[120]. وقد حاولت Lucette Valensi فكّ لغز الجذور التاريخيّة للقبائل التي عنتها بالدرس، إلاّ أنّها اعترفت في نهاية الأمر أنّ "ضبط تاريخ مختلف القبائل وأصولها يبقى شبه مستحيل. فالقبائل تضبط تاريخ مجيئها وتكوينها وتنظيمها بنفسها معتمدة على أسس أسطورية تناقلتها الأجيال وتغيّرت من فترة لأخرى..."[121]. ذلك ما تبرزه، على سبيل المثال، ملحمة قدوم واستقرار قبيلة المرازيــق في الجنوب التونسي. فالرواية الّتي يتفاخر في ذكرها الأحفاد بالجدود الأوّلين، تبرز مدى سيطرة الجانب الأسطوري على أحداثها. كما تتداخل في مختلف مراحل تكوينها الجذور العربية بالبربريّة بحيث يعسر على الباحثين المعاصرين فكّ ألغازها[122].

نتحاشى من ناحيتنا الدّخول في الجزئيّات المتعلّقة بخصوصيّات القبائل التّونسيّة وتركيبتها الاجتماعية والنّظام القبلي الّذي يسود البلاد التّونسية خلال الفترة الحديثة. فالدّراسات تعدّدت من هذه الناحية[123]. ونقتصر على تصنيف

120- Despois (J), *La Tunisie orientale, Sahel et basse steppe*, 2ème éd, P.U.F, Paris 1956, p.169.

121- Valensi (L), *Fellahs tunisiens...op.cit.*, p.10.

122- M'halla (M), " Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme..." *op.cit.*, pp. 137-193.

123- لعلّ أبرزها دراسة Lucette Valensi ودراسة الأستاذ مبروك الباهي المذكورتان آنفا وأطروحة دكتوراه الدولة للأستاذ خليفة شاطر حول : "التّبعيّة وتغيّرات ما قبل الاستعمار: الإيالة التّونسيّة من 1815 إلى 1857"

Chater (K), *Dépendance et mutations précoloniales : La Régence de Tunis de 1815 à 1857*, Tunis, P.U.T 1984.

حول الدراسات التي عنيت بالقبيلة في تونس الحديثة انظر الباهي (مبروك)، **نفس المرجع**، ص 31.

القبائل التونسية حسب ما ورد في آثار الرحالة الأوروبيّين. فإلى جانب تقديم القبائل وفروعها أو بطونها حسب العبارة المحلّية، من الشمال إلى الجنوب، أشار الرحّالة إلى طبيعة كلّ قبيلة إن كانت مستقرة أو مرتحلة أو مُغيرة. وهذا من شأنه أن يدعّم ما خلصت إليه الدراسات المعاصرة من تحوّلات طرأت على المجتمع البدوي خلال القرن 19.

أ- من الترحال إلى الاستقرار :

من خلال وصفي Marmol وأبي الحسن الوزان في مستهلّ القرن 16 يبدو أن بعض القبائل تمركزت على الشريط الساحلي من شمال البلاد إلى جنوبها وفي بعض السهول الخصبة وحول الأودية. بينما أبقت غالبية القبائل الأخرى على ترحالها داخل البلاد ما بين مناطق السباسب العليا والسفلى وتخوم البلاد الجبلية والصحراوية معتمدة على نمط عيش قوامه "تربية الجمال والصيد والإغارة...كما تعتمد بعض القبائل على مقايضة العبيد بسلع تقتنيها من تجارة البندقيّين مع المدن الساحلية"[124].

اجتمعت القبائل المستقرة على الشريط الساحلي الممتد من طرابلس إلى شمال البلاد التونسية، في شكل قرى و"دوّارات" مثلما أشار لذلك أبو الحسن الوزّان. وارتكز معاش البدو في هذه التجمعات السكنية على أعمال مختلفة كزراعة الحبوب وغراسة بعض الأشجار المثمرة أو تربية الماشية كالضان والخيول أو بعض الأعمال اليدوية أبرزها النسيج. وقد دعّم نظام البايات منذ بداية القرن 17 استقرار البدو في هذه المناطق لتأمين حياة سكان الحواضر وإنجاح مشروعه السياسي الرامي إلى فرض مبدأ "الأمن الجماعي" والاقتصاد القائم على القرصنة والمبادلات التجارية[125]. ولم تول الإدارة المركزية في بداية الأمر اهتماما بالمناطق الشاغرة من التراب التونسي بل ركّزت حملاتها

124- Léon (l'Africain), *De l'Afrique...op.cit.,* t.2, p.91.

125- يعتبر مبروك الباهي أنّ "إيقاع التاريخ التونسي مال منذ الحضور العثماني إلى حلبة المتوسط وانتصبت السلطة وسيطا بين الأرياف متنوعة الإنتاج وبين ذلك المركز...." **القبيلة في تونس...نفس المرجع** ص 21.

على مناطق استقرار بعض القبائل ومسالك مرور البعض الآخر في ترحالها لفرض سيطرتها عليها، "ومن دانت له الأشخاص ملك الأرض قهرا"[126].

انطلاقا من القرن 18 أشارت جلّ آثار الرحالة الأوروبيّين إلى انتشار القبائل المستقرّة في كامل تراب الإيالة من شمالها إلى جنوبها إمّا طواعية لارتباطها بالأرض أو قهرا أمام بطش السلطة المركزية[127]. وتمثّل المشهد الجديد في استقرار القبائل الكبرى وخاصة منها تلك الّتي تقطن السباسب العليا والوسطى والّتي حدّدها Pellissier سنة 1843 بأربع :

قبيلة جلاص : وهي بدورها تنقسم إلى أربع فروع أو "بطون" : أولاد إيدير، شمال القيروان، سنداسن جنوبها، الكعوب أو الكوازين خلف جبل وسلات وأخيرا، يقطن أولاد خليفة شرقي سنداسن. وكانت هذه القبيلة فيما قبل، تنضمّ تحت قيادة واحدة أمّا الآن فهي تنقسم إلى قيادات ثلاثة : أولاد إيدير، أولاد خليفة وسنداسن والكوازين. وتوفّر هذه القبيلة لحكومة الباي ثلاثة آلاف فارس كلّما اقتضت الحاجة[128].

قبيلة ماجر : تحتلّ هذه القبيلة منطقة حاجب العيون إلى حدود واد الفكّة وتنقسم إلى "برادع" ثلاث : أولاد منّا ويستقرّ هؤلاء حذو واد جلمة، فهد قرب جبال مكيلة والشكاتمة نحو الغرب في سبيبة. وتوفّر قبيلة ماجر ألفي فارس.

126- Bachrouch (T), *Formation sociale barbaresque...op.cit.*, p.158.

127- يتحدث مبروك الباهي عن عامل " الحوز وأهمّية الظاهرة الولائية في تشكيل المشهد العقاري السياسي..." ، **القبيلة في تونس في العهد الحديث... نفس المرجع**، ص 36.

128- إلى حدود القرن التّاسع عشر لم تكن تساهم في توفير الجنود أيّام الحرب إلاّ القبائل المخزنيّة. وفي عهد حمودة باشا باي الحسيني(1782 - 1814) أرغمت كلّ القبائل على تقديم يد العون للحكومة المركزيّة أيّام المحن وذلك بتقديم نسبة من خيرة فرسانها لمعاضدة الجيش الحكومي. يقول Louis Frank، الطّبيب الخاص لحمّودة باشا : " كلّما وجد الباي نفسه مجبرا على شنّ حرب على باشا طرابلس أو بايات قسنطينة أرغم القبائل على جمع قوّة عسكريّة كبيرة تبلغ قرابة أربعين ألف جندي... بعد جمع الجيش التّابع له مباشرة، يطلب من قبائل العرب البدو قاطبة مناصرة الإيالة... لم تكن هذه القبائل تتراجع قطّ عن هذا النّداء يحدوها في ذلك أمل الحصول على غنائم على حساب العدو المنهزم وحتّى على حساب أهالي الإيالة الّذين يعترضون سبيلها... ويتكوّن جيش هذه القبائل من فرسان فقط" Marcel (J.J), *Tunis... .op.cit.*, pp. 74-75

قبيلة الفراشيش : لهذه القبيلة فروع ثلاثة وهي : أولاد نجدي، على حافتي واد الفكّة الأعلى وواد الدّرب، أولاد علي والوزّاز قرب الحدود الجزائريّة. ويوفّر الفراشيش من جهتهم ألف فارس.

قبيلة الهمامّة : تقطن هذه القبيلة جنوب ماجر والفراشيش إلى حدود منطقة الجريد وتنقسم إلى فروع ثلاثة : أولاد عزيز جنوب جبل عرباط وأولاد رضوان شمال جبل ماجورة وأخيرا المعامرة في منطقة بير الحفي والسّوينيّة إلى حدود فريانة. توفّر قبيلة الهمامّة عند الطّلب ثلاثة آلاف فارس"[129].

كما أكدت غالبيّة المصادر الغربية على أنّ كلّ هذه القبائل المستقرّة تعتمد في نمط عيشها على أعمال فلاحية دورية تجبرها على الاستقرار كالزراعات وتربية الماشية في المراعي القريبة من القرى والدوّارات. كما أنّها تتجمع حول وليّ صالح يكون غالبا مؤسّسها أو أحد أحفاده تنسج حوله جملة من الكرامات ويحميها وقت الحاجة. ذلك ما ذكره أحد رحّالة منتصف القرن 19 عن قبيلة الفراشيش الّتي "تتكون من "برادع" أو فروع ثلاثة كلّ واحدة لها "زمالتها"، أي العائلات المكونة لها. "ويحكم القبيلة ،قايد[130]. يعيش الكلّ تحت الخيام وهم في آن واحد فلاّحون ورعاة متنقّلون. تتنقل قطعانهم الكبيرة داخل مساحة شاسعة تترامى أطرافها من الغرب إلى الحدود الجزائرية. ينسجون أغطية بصوف خرفانهم وبرانس جيّدة... تجتمع زمالة أولاد علي، وهي أحد فروع قبيلة الفراشيش حول سيدي بولعابة وهو وليّها الصالح. وحول ضريحه تنتشر مقبرة قبيلة الفراشيش جمعاء..."[131].

129- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis... op.cit.,* p.126.

تضيف Lucette Valensi أنّ : "أولاد سيدي سليمان والحوامد والقمامديّة وأولاد سيدي بوزيد لا ينتسبون من حيث أصولهم لأولاد رضوان أحد الفروع الأساسيّة للهمامّة... فالقمامديّة يحتلّون منذ أمد طويل حافة الواد المسمّى باسمهم نحو زاوية الصدّاقية، ولا نعرف أصولهم التّاريخيّة شأنهم في ذلك شأن القبائل الثّلاث الأخرى الّتي عاشت دائما بين أبناء قبيلة أولاد رضوان" Valensi (L), *Fellahs ...op.cit.,* p.37.

130- كانت الإيالة تنقسم إداريا إلى "قيادات" يترأس كلّ واحدة "قايد". وتنقسم القيادات بدورها إلى "مشايخ" (مشائخ).

131- Guérin (V), *Voyage archéologique*..t.2, *op.cit.,* pp. 307-308.

ما هي إذن العناصر الّتي حدّدت استقرار القبائل على امتداد العصور ؟ وهل أنّ الاستقرار هو إرادة سياسية للضغط على البدو والرحل وإجبارهم على دفع الجباية فحسب ؟ أم هي ظاهرة اقتصادية بحيث أنّ القبائل الرحل تأقلمت مع بيئة معيّنة وتفاعلت مع نمط عيش أجبرها على الاستقرار وتغير "نمط إنتاجها" ؟.

يبدو أنّ كلّ هذه العناصر الطّبيعية والسياسية والاقتصادية تفاعلت تدريجيا خلال الفترة الحديثة لخلق مجال جديد ساعد بل أجبر في بعض الأحيان قبائل الوسط التونسي وبعض قبائل الأطراف الشمالية والجنوبية للإيالة التونسية على الاستقرار. وربما كان للعامل السياسي الدور المحدّد في هذه الظاهرة الّتي غيرت من نمط عيش البدو الّذين استقروا نهائيا أو أبقوا على ترحالهم في مجال جغرافي ضيق مثلما تقتضيه حاجة ارتباطهم الوثيق بالأرض كما يشير إلى ذلك الأستاذ مبروك الباهي بأنّ "التحوّل (من الاعتماد على الجمل للترحال إلى الاستقرار بتربية الخرفان) ترافق مع تعديل طبيعة الرحلة والعلاقة مع المجال، إذ أصبحت التجمعات السباسبية تقتصر دورة تحركها في الغالب على مجالاتها المخصوصة..."[132]. وما إشارة Louis Frank إلى أنّ "القبائل التونسية أصبحت منذ حكم حمودة باشا باي تساهم في مدّ الجيش النظامي بخيرة فرسانها وقت الحاجة" إلاّ دليل على ولائها للسلطة المركزية وامتثالها لمشيئتها[133]. ولئن أبقت بعض فروع من قبائل الوسط والجنوب التونسي على تمرّدها وطابعها المعادي لأي شكل من أشكال الإرادة السياسية فذلك أمر شاذّ لا يتناقض مع الظاهرة العامة للاستقرار الّذي شمل معظم القبائل التونسية. نضيف إلى ذلك ما أشار إليه الرحالة من انتشار للطرق الصوفية[134] واستقرار الأولياء الصالحين وأصحاب الطرق في مناطق معينة تبعهم إليها أتباعهم وكل من اعتقد في كراماتهم.

132- الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث...** نفس المرجع، ص 217.

133- Marcel (J.J), *Tunis....op.cit.,* pp.74-75.

134- أو ما عبّر عنه مبروك الباهي "بالتزوّي"، **المرجع نفسه.**

تفاعلت إذن، عدّة عناصر على مشارف نهاية الفترة الحديثة لتغيّر من نمط عيش الجزء الأكبر من البدو في الإيالة التونسية وذلك بتشكّل النظام القبلي التونسي وبروز القبيلة التونسية كوحدة بشرية /ثقافية تطورت في صلبها شريحة من المجتمع التونسي جبلت قديما على الضرب في البوادي والقفار وآلت بتدرّج إلى الاستقرار في مواضع اتخذت منها موارد رزقها بتعاطيها الأعمال الفلاحية كالزراعة والغراسة وتربية الماشية أو المبادلات التجارية مع الحواضر المجاورة لها[135].

كما طوّر البدو المستقرّون في آن واحد نمط عيشهم إذ "تدجّنوا" وسايروا سكان الحواضر طباعهم وبعض عوائدهم وتعاملهم. وتقسيم المجتمع التونسي حسب طباعه إلى "سكّان ذوي مساكن قارّة" و "عرب القبائل الرحّل" الّذي اعتمده Pellissier في منتصف القرن 19 يدلّ بوضوح على تأقلم المستقرّين من البدو مع ما يحتّمه الاستقرار من تغيير في سبل العيش والطبائع "الهادئة" بعيدة عن "التوحش" الّذي يقتضيه الترحال[136]. وفي انحدار البداوة عشية القرن 19 نحو الاستقرار والتخلّي عن الترحال كإحدى الخصائص الحضاريّة لأبرز شريحة من المجتمع التونسي الحديث تدرّج طبيعي نحو انقراض القبيلة كوحدة اجتماعية/ثقافية متجانسة فرضت سيطرتها على المجال الجغرافي التونسي لقرون متتالية.

135- استغرق تدرج القبائل البدوية نحو الاستقرار "زمنا غير هيّن تدرجت فيه قبائل الشمال قبل وسط البلاد وجنوبها. ومن ثمّ فالمعتقد أنّ بداية المرحلة الأولى من استقرار عروش مجردة... لم تتحقّق إلاّ خلال القرن 16 عندما بدأت تتوطّد علاقتها بالأرض والنشاط الزراعي بينما تستمرّ هذه الدورة الإعاشية المرتبطة بالجمل عند الهمامّة في السباسب حتّى القرن 18 ولدى ورغمّة في جنوب الأعراض حتّى القرن 19." الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث...**، نفس المرجع، ص 149.

136- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis op.cit.*, p.331.

وقد خلص صاحب "العبر" من قبل إلى أنّ العرب إذا ركنوا إلى الاستقرار في مكان "إنّما همّتهم الكسب وخصب العيش والسكون في ظلّ الدولة إلى الدعة والراحة...فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبيّة والبسالة... وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك..." **المقدمة...نفس المرجع**، الفصل الثامن عشر، ص 175.

وإن اعتبر البعض أنّ الفاعل الاستعماري هو الّذي قوّض التنظيم القبلي بتونس، فإنّ تطور المجتمع التونسي خلال الفترة الحديثة بتفاعل العوامل السياسية والاقتصادية يبدو المحدّد في انتقال البدو من مرحلة الترحال إلى مرحلة الاستقرار لينتهي بهم المطاف إلى مرحلة التحضّر[137]. وعبارة "البدو شبه الرحّل" أو "نصف الرحّل" "semi-nomades"، إنّما هو مفهوم استعماريّ اختلقته الإدارة الاستعمارية لإبراز الدور الحضاري الّذي قامت به للقضاء على النظام القبلي السائد إبّان الاحتلال[138]. إلاّ أنّ الاستعمار الفرنسي، وإن لم يكن العامل الأساسي في تطوير ظاهرة البداوة في تونس عشية القرن 19، فقد ساهم بطريقة غير مباشرة في استقرار بعض القبائل البدوية التونسية وذلك بإدخال تغيرات جذرية على النظام السياسي. فقد عدّلت القبائل المخزنيّة الّتي كانت موالية للعائلة الحسينية الحاكمة من نمط عيشها على غرار قبيلة دريد "التي كانت من قبل قوية بإمكانها أن تجمع آلاف الفرسان لمعاضدة فرق الجيش النظامي... أمّا الآن فساعة انهيار قبيلة دريد قد دقت إذ خسرت كلّ امتيازاتها وانقسمت إلى عدّة مجموعات بائسة تهيم في مناطق خصبة عاجزة على حرثها وزرعها وسوف تجبر بدون شكّ على التفريط فيها لمن هو قادر على استغلالها... وقد عدل قائدها منذ سنوات على العيش تحت خيمته واستقر في

137- يعتبر مبروك الباهي أنّ التاريخ القبلي "انتهى في السباسب الوسطى كما هو في مناطق أخرى قبل غروب العهد الحديث إلى تحوّلات على غاية من الأهمية في أنماط العيش والتفاعل مع المحيط والأجوار بفعل عوامله الداخلية الّتي يصعب الإحاطة بها." الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث...، نفس المرجع**، ص 13.

138- درجت هذه العبارات في كتاب Mayet الذي زار الجنوب التونسي سنة 1884 والّذي يعتبر أن سكان منطقة الجريد "استقبلوا الاحتلال الفرنسي بكلّ حفاوة لأنه خلّصهم من خطر القبائل الغازية"

Mayet (V), *Voyage dans le Sud tunisien*, Paris, Challemel 1887

انظر كذلك

M'halla (M), "Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme. Le Sud-Ouest tunisien au XIXè siècle", in, *Le Sahara, lien entre les peuples et les cultures*, actes du colloque organisé à Douz du 19 au 22 décembre 2002, édité par la chair Ben Ali pour le dialogue des civilisations et des religions, p.139.

بيت حجري... وقد أخذنا في نزهة داخل حديقته حيث غرس أشجارا مثمرة متنوعة..."[139]

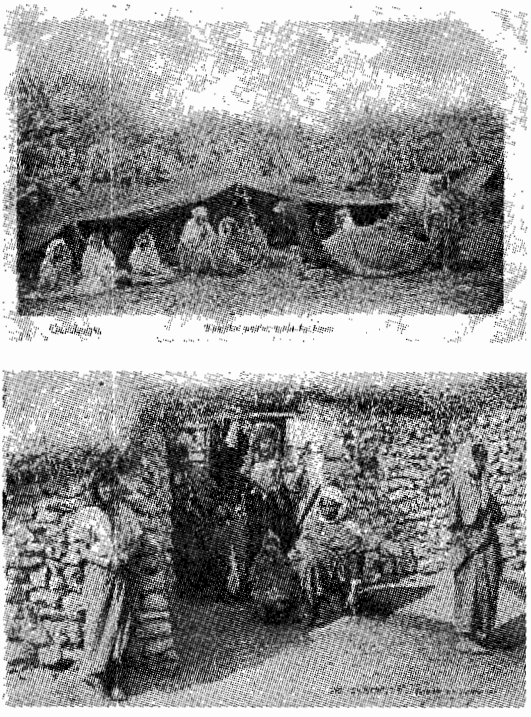

مثّل الانتقال من الخيمة إلى المنازل المبنية من الطوب أبرز مظاهر استقرار البدو[140].

ب- التمرّد البدوي :

اتّسمت العلاقات بين بعض القبائل التّونسيّة بالاحتداد بل بالصّراع شبه المتواصل على امتداد عدّة قرون. وقد حاولت مختلف الدّراسات المعاصرة أن تجد تفسيرا لهذه الصّراعات القبليّة. ففي حين يرى بعض المؤرّخين أنّها تعود بالدّرجة الأولى إلى أسباب اقتصاديّة مرجعها الأصلي التّناحر للسّيطرة على

139- Fallot (E), *Une excursion à travers la Tunisie centrale*, Marseille 1890, p.89.

140- تعود الصور إلى نهاية القرن 19 Mayet (V), *Voyage dans le Sud tunisien...op.cit.*

الأراضي الخصبة والمراعي[141] أو تمثّلت في شكل مصادمات بين دوّار وآخر حول نبع مياه أو غارات كانت تستهدف الماشية بالدرجة الأولى...[142]، ركّز البعض الآخر على النّظريّة الخلدونيّة الّتي تعتمد ظاهرة "العصبيّة القبليّة"، في اتحاد والتحام المجموعات البدوية[143].

إلاّ أنّ الأوروبيّين الّذين زاروا الإيالة التّونسيّة خلال الفترة الحديثة اكتفوا بذكر هذه الصّراعات دون تقديم تفسيرات شافية لهذه الظّاهرة وعلّقوا عليها بكثير من الاستغراب خاصّة إذا قابلت فرعين من فروع نفس القبيلة. وإن حاولوا في بعض الأحيان التحقيق في الأمر، فإنّ تحاليلهم كانت غالبا سطحيّة أو تشوبها بعض الأفكار المسبقة حول طبائع البدو المتوحّشة. ومع ذلك، فإنّ كتاباتهم انفردت بالتفرقة الواضحة بين مظاهر ثلاثة من تمرّد البدو وطباعهم العدوانية[144] : "عصيانهم" للسلطة، مثلما أبرزنا ذلك آنفا، و"الصراعات" التي تندلع من حين لآخر بين بعض القبائل و"الغارات" الّتي تقوم بها قبائل أو مجموعات بدوية توارثت هذا النوع من "القرصنة" البرّية[145] والتسلط الجماعي.

141- يعتبر Jean Ganiage أنّ ظاهرة الصّراع القبلي "ظاهرة عاديّة تعود بالدّرجة الأولى إلى الحدود الطّبيعيّة لكلّ قبيلة... ذلك ما يجيّش النعرات القديمة..."

Ganiage (J), *Les origines du protectorat français en Tunisie, 1861-1881*, P.U.F, Paris 1956, p.142.

142- الإبل والأغنام كانت المطمع الأوّل للمغيرين على عروش السباسب التي تقدم بها الاستقرار..." الباهي (مبروك)، **القبيلة...**، **نفس المرجع**، ص 184. انظر كذلك

Despois (J), *La Tunisie orientale...op.cit.*, p.162.

143- Cherif (M.H), "Les mouvements paysans... " *op.cit.*, p.25.

يقول ابن خلدون في هذا الصدد " أمّا حللهم (البدو) فإنّما يذود عنها من خارج حامية الحيّ من أنجادهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدّق دفاعهم وذيادهم إلاّ إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد..." **المقدمة**... ص 159.

144- فسّر صاحب المقدّمة هذه الطباع بأن "صار البأس للبدو خُلقا والشجاعة سجيّة...فكانوا لذلك أشدّ الناس توحشا" **المقدمة... نفس المرجع**، ص 155

145- حسب العبارة التي استعملها Marmol في بداية القرن 16 : "وسكان المنطقة (المنطقة الشمالية) فقراء بسبب ما يدفعونه للملك كما أنّهم يعانون من قرصنة العرب الّذي يروّعون كامل المنطقة" Marmol, *L'Afrique de Marmol*, t.1, p.531

ولعلّ أبرز أوجه هذه الصراعات هي المواجهة الّتي كانت تندلع من حين لآخر بين بعض القبائل منذ قرون "دون سبب واضح" بالنسبة إلى هؤلاء الأجانب إذ تعسّر عليهم فهم عمق الصّراعات القبليّة الّتي تحتدّ بين قبيلتين أو أكثر حسب قانون الموالاة أو العداءات القديمة المتوارثة[146] والقائمة على أسس روابط وخلافات حدّدتها طبيعة عيش البدو المادّية وتراكمات ثقافية تعود في غالب الأحيان إلى زمن قدوم القبائل العربية واستقرارها في شمال إفريقيا. ويعلّق Pellissier على هذه الصّراعات قائلا : "قلّ وندر أن يستتبّ الأمن والتّصالح بين القبائل الأربعة المكوّنة للوسط التّونسي. إلاّ أنّ الحرب ليست عامّة وتقتصر على مناوشات بين دوّار وآخر غالبا ما ينتميان إلى نفس القبيلة. عندما كنت بتونس اشتعلت فتيلة الخلاف بين قبيلة أولاد سلامة وقبيلة أولاد علي اللّتين تنتميان إلى القبيلة الأمّ الهمامّة. ولا يستبعد البعض أنّ هذا الخلاف قد أدّى إلى مقتل 11 رجلا. والغريب في الأمر أنّ سبب الخلاف كان تافها يتمثّل في مقتل حصان"[147].

وقد تتخذ هذه الصراعات في بعض الأحيان شكل حرب ضارية تتوارثها الأجيال فتشتعل تارة وتخمد أخرى وتتداخل فيها المصالح الماديّة والصراعات السياسية والأعراف القبلية كقانون الموالاة والأخذ بالثأر والتزاوج... وقد عايش Pellissier أحد هذه الصراعات بل كان طرفا فيها عندما حاول أن يصالح بين قبيلتي بني زيد وورغمّة اللّتين تحتلاّن الجنوب الشرقي من البلاد التونسية. كان ذلك في شهر جويلية من سنة 1846 عندما كانت القافلة المرافقة له تقطع

146- يتحدّث التيجاني في رحلته في بداية القرن 14 عن علاقة قبيلة ورغمّة بجيرانها فيذكر أنّ لها عدوات متأصلة مع أهل غمراسن "ولها أيضا حقد على النفّاتيين وبينهم دماء..." التيجاني (محمد بن أحمد)، **رحلة التيجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس 1985، ص137 . وهي نفس العداوات الباقية إلى حدود القرن 19.

147- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis... op.cit.*, p.129.

يؤكّد مبروك الباهي أنّ الإغارة كانت تتمّ من" أجل الماشية والحبوب بينما كان الاقتصاد في إراقة الدماء شعار البدوي الغازي إذ لا تسقط الأرواح إلاّ عرضا. ولئن كان الغزو يسمح بنهب كلّ الممتلكات بما في ذلك السلاح فلم تكن الأعراف في تونس تسمح بالتعدي على اللّفائف الضعيفة من شيوخ ونساء وأطفال" الباهي (مبروك)، **القبيلة...، نفس المرجـــع**، ص 184.

منطقة مدنين، فعلم أنّ "القبيلتين دخلتا في صراع منذ يومين" ولم يتوقف الصراع على الطرفين المتعاديين فحسب بل جرّ مجموعة من القبائل الموالية لهذه أو لتلك، بحيث أصبحت كامل المنطقة الجنوبية الشرقية في حالة حرب واستنفار قصوى. وفي خضمّ هذه الوضعية المتوتّرة عبّر "خليفة ورغمّة" لنائب القنصل الفرنسي عن "استعداد أهله لمصالحة أعدائه" وطلب منه التدخّل لدى الباي "حتى يستقبل ممثّلين عن القبيلتين المتعاديتين ليصالح بينهما على أسس صلبة". وتقدّم "شيخ الحامة" عن قبيلة بني زيد لممثل الدولة الفرنسية بنفس الطلب. وقد حاول Pellissier القيام بدور الوساطة عن طريق القنصل الفرنسي نفسه، إلاّ أنّ مساعيه لم تكن مجدية ولم يعر الباي الوساطة الفرنسية اهتماما. تواصل الصراع لبضعة أشهر ولم تهدأ الأوضاع وتزايد عدد القتلى من بين الطرفين المتعاديين. ويضيف صاحبنا أنّ "القبيلتين حملتا السلاح من جديد عند رحيلي من تونس في ربيع 1848 وهذه الحروب المتقطّعة بين القبائل المتعادية أمر عاديّ يتواصل على نفس النسق منذ قرون"[148].

وإن كانت المنافسات القديمة والأعراف القبلية الموروثة تمثل السبب الرئيسيّ في إضرام فتيل المصادمات بين القبائل فإنّ السلطة المركزية لعبت دورا مباشرا في احتداد الأوضاع المحلّية بأن تجاهلت مثل هذه الأحداث تاركة المجال لما تعودت عليه هذه القبائل منذ قرون من تصفية حسابات قديمة. بل في تناحرها راحة لأصحاب النفوذ. وما تجاهل المشير أحمد باي تدخّل القنصل الفرنسي لفض النزاع بين قبيلتي ورغمّة وبني زيد إلاّ دليل على رغبته في تواصل النزاع ما لم يكن الأمر موجها ضدّ الدولة أو أحد ممثليها. والحال أنّ نفس هذا الباي تنقّل قبل بضع سنوات بجيش "عرمرم" لإخماد "فتنة" اندلعت في نفس المنطقة ضدّ عامل الأعراض. وهي سياسة اتخذتها سلطة البايات في الواقع للتفرقة بين مختلف القبائل البدوية ودعّمتها على امتداد القرن 19 باعتمادها "سياسة التمايز القبلي" وإفساح المجال للقبائل المخزنية الموالية لها

148- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis… op.cit.*, pp.208-210.

بأن تهيمن على بعض المناطق على حساب قبائل أخرى ركنت إلى نفوذ العمّال وأعوان الدولة[149].

أمّا "الغارات" الّتي احترفتها بعض القبائل"المغيرة" المتمرّدة أو "قطّاع الطرق" الذين ينهبون العامة لصالحهم الخاص، فقد أبهرت الجميع وأطنب جلّ الرحّالة الأوروبّيين في ذكرها ومدّنا بأدقّ التفاصيل عن وقوعها. ويبدو أنّ ظاهرة الإغارة كانت أكثر انتشارا في أوائل العهد الحديث ولم تقتصر على "الغارات المنظمة" بل تمثّلت في عمليّات "قطع الطريق" الجماعية أو الفرديّة وخاصة في المناطق الصحراوية النائية حيث تعيش مجموعات تشكو الخصاصة والفقر، على غرار أولئك الّذين اعترضوا سبيل أبي الحسن الوزّان في بداية القرن 16 في المناطق الصحراوية الفاصلة بين تونس وطرابلس حيث "يعيش سكان أقرب منهم إلى الحيوانات، حفاة عراة هلكهم الجوع... فكانوا يرسلون أطفالهم للقيام بأبشع عمليّات السطو الّتي تقع على وجه البسيطة ونهب المارّين من هذه المناطق"[150].

خلال القرن 19، اقتصرت الإغارة أو ما يعبّر عنها بالتغريبة على بعض القبائل، أبرزها قبيلتي النمامشة والحنانشة على امتداد المناطق المتاخمة للحدود الجزائريّة التونسية وقبيلة أولاد سعيد بالمناطق الشمالية وقبيلة الهمامة في وسط البلاد التونسية ومنطقة الجريد وقبيلة أولاد زيد بالجنوب الشرقي[151]. وقد أجمع كلّ الرحالة على أنّ هذه الغارات الّتى تقوم بها بعض القبائل على جيرانها "لا تعدو أن تكون أمرا عاديا للغاية يجد فيه البدويّ الفرصة للتباهي باستعمال السلاح"[152]. كما هي "عادة مزمنة ومتأصّلة في البدو"[153] نظرا لطبيعتهم المتوحشة. إلاّ أنّ تفاقم الأوضاع المادية للبادية خلال القرن 19 قد شجّع بعض القبائل التي تمرّست بالإغارة وورثت مهاجمة القبائل المجاورة

149- انظر، الباهي (مبروك)، **القبيلة...، نفس المرجع**، ص 116.

150- Léon (l'Africain), *De l'Afrique...op.cit.*, t.2, p.92.

151- انظر، Cherif (M.H), « Les mouvements paysans... » *op.cit.*, p.28.

152- Rebatel et Tiran « Voyage dans la Régence de Tunis... », *op.cit.*, p.306.

153- Guérin (V), *Voyage archéologique*, t.1, *op.cit.*, p.218.

والقوافل التجارية المارة من المناطق التي تسيطر عليها أبا عن جدّ[154]. لذلك تمثلت مطامع المغيرين في السطو بالدرجة الأولى على الإبل والأغنام.

وللغارة أعرافها ونواميسها يمكن أن نستشفّها من خلال الوصف الدّقيق الّذي مدّنا بها بعض الرحّالة لغارات عاشوا وقائعها وسجّلوا أحداثها. إلاّ أنّنا لا نجد أثرا لما يسبق الغارة من تراتيب كإقرار "ميعاد"[155] القبيلة وموعد ومكان الغارة. ولنا فيما ساقه الصغير بن يوسف الباجي عن غارة قبيلة الحنانشة على عرش زواغة في منتصف القرن 18 أحسن مثال إذ كتب : " وقد شاع إذّاك عند الناس خبر زواغة بما عندهم من السعي ومالهم من الثروة... شاور بوعزيز (شيخ قبيلة الحنانشة) ثقاته وقد علم بما لزواغة من السعي والصياغة. قالوا له: يا شيخ إن فاتتك (كذا) هذه الغنيمة، وأيّ غنيمة من هذه الرعية الذميمة وفؤاد البهيمة... فقال بوعزيز: عند المغرب نسيروا (كذا)، وعند الصباح على القوم نغيروا (كذا) والتمّت (كذا) على العيايدة من كلّ عرش وأتتهم مشايخ عمدون وأولاد بوسالم وشيحة...ولمّا طاح اللّيل وركبت الخيل وتمّوا سايرين (كذا) وعلى زواغة عاملين (كذا) إلى أن طلع الفجر ولاح فوصلوا إلى منازل عرش زواغة المغرورين..."[156].

ونواصل تفاصيل الغارة مع فرسان قبيلة الهمامّة المغيرة في منطقة الجريد في حدود سنة 1870 حسب شهادة الرحالة الفرنسي Rebatel. يذكر هذا العالم أنّ " الهجمات الصغيرة تتكون عادة من خمسة إلى خمسين حصانا بينما تصل الكبرى إلى مائتين أو مائتين وخمسين فارس. ويمكن لهؤلاء أن يقطعوا تحت قيادة زعيمهم أكثر من مائة وخمسين كيلومتر من دوّارهم. وعند وصولهم قرب محطّ رحال القبيلة المعنية، يحاولون الاقتراب أكثر ما يمكن دون أن يتفطّن لهم الأهالي بأن يختفوا خلف المرتفعات من الأرض أو وسط أسرّة الأودية النابضة. ثمّ ينقضّ خمسة أو ستة من أقدر الفرسان بسرعة كبيرة

154- Mayet (V), *Voyage dans le Sud... op.cit.*, p.354.

155- وهو عبارة عن مجلس يضمّ كبار القوم تحت إمرة شيخهم. وللميعاد مهمّة أخذ القرار الجماعي في كلّ الشؤون التي تهمّ القبيلة، انظر : Cherif (M.H), « Les mouvements paysans… » *op.cit.*

156- الباجي (الصغيّر بن يوسف)، **المشرع الملكي ... نفس المرجع**، ص 152.

على الرعاة المعزولين ليجرّوا أمامهم ما يمكنهم حمله من الخرفان والإبل. كما يتجهون بأسرع ما يمكن نحو مقر القبيلة لحمل عدد أكبر من القطيع في حين يبقى الفرسان الآخرين خلفهم لحماية ظهورهم ضدّ أي هجوم محتمل. ترتكز هذه الخطة البدائية على عاملي المخادعة وسرعة تنفيذ العملية. لذلك يعتمد الفرسان على قدرات خيولهم..."[157].

أمّا في الطرف المقابل فالمفاجأة تحدث ارتباكا عارما لدى كلّ أفراد القبيلة. ففي 15 مارس 1860، عندما كان Guérin يتأهّب لقضاء ليلته في قرية جرجيس أربكه "صياح تعالى في أرجاء القرية من حناجر النسوة والأطفال[158] وهو بمثابة المنبّه للسكان في كلّ الأنحاء معلنا حصول غارة يقوم بها حوالي خمسون فارس ينتمون إلى قبيلة قريبة. وقد تمكن هؤلاء من نهب بضعة مئات من الأغنام وثلاثين بقرة...وقد منعت الظلمة سكان القرية من تتبع قفا الناهبين. وبقي كلّ السكان على أهبة الدفاع في حال أن يعيد الغزاة الكرّة..."[159].

اشتهرت بعض القبائل خلال كامل الفترة الحديثة بتمرّدها واعتمادها قطع الطريق والإغارة. وإن تتبّعنا مجالات تحرك هذه القبائل ومسارح عملّياتها على امتداد القرون نرى أنّها كانت تقطن مناطق نائية بالجبال الحدودية الجزائرية التونسية أو متاخمة للمناطق الصحراوية بعيدة عن نطاق نفوذ السلطة المباشرة. أو أنّها كانت قبائل حليفة للسلطة تحظى بتغافل السلطة عماّ كانت تقوم به من عمليّات إغارة في مجالات شاسعة كانت تسيطر عليها وتروّع سكانها وتجبرها على دفع إتاوات لها مقابل حمايتها وعدم التعرض لرعاتها وقطع سبيلهم. ولم تكن تتوانى أمام مهاجمة ممثّلي السلطة من جباة الضرائب أو المحلّة بنفسها.

157- Rebatel et Tiran « Voyage dans la Régence de Tunis… » *op. cit.*, p.306.

يتحدّث مبروك الباهي عن "الثالوث الذي كان يضمنه الجواد لرجال العرش الغوارة" وهي "عناصر المفاجأة وسرعة الحركة وخفتها والهروب من الملاحقة فضلا عن دقة استعمال السلاح" الباهي (مبروك)، **القبيلة...، نفس المرجع**، ص 179.

158- وهذا الصياح المنبّه يعبّر عنه المحلّيون "بالفزعة" أو "الفزّاعة".

159- Guérin (V), *Voyage archéologique*...t.2, *op.cit.*, p.218.

من أبرز هذه القبائل المغيرة قبيلة الحنانشة الّتي ذكرها كل الرحّالة دون استثناء منذ بداية القرن 16 إلى حدود القرن 19. فقد ذكر Marmol هذه القبيلة في منتصف القرن 16 وحدّد مجال نفوذها "بغابات قسنطينة و القالة". كما قدّر عدد فرسانها بـــ 50.000[160]. وخصّ Peyssonnel هذه القبيلة في بداية القرن 18 بحديث مطوّل ركّز فيه بالدرجة الأولى على شيخها "بوعزيز" الّذي كان يجلب لنفسه ولقبيلته احترام مختلف القبائل المجاورة له ومخاوف الحكومتين التونسية والجزائرية اللّتين كانتا تهابانه وتعترفان له بالسيطرة على كامل المناطق الحدودية الجزائرية التونسية. " وقد تمكن بوعزيز عديد المرار من صدّ الجيش التركي في هذه المناطق الحدودية... وهو قوي وشديد البطش، بإمكانه أن يجمع 8000 آلاف فارس. وفي سنة 1724، تكاتفت جهود داي الجزائر وباي تونس وهاجمه جيشا الدولتين على حين غرّة فافتكا منه أكثر من 8000 جمل وعدد كبير من الأبقار والخيام..."[161]. ويعلمنا الورتلاني[162] في سنة 1766 أنّ إبراهيم بوعزيز الحنّاشي شيخ هذه القبيلة "كان في تمرّد دائم ضدّ باي قسنطينة. ولتفادي ردّ فعل محلّة الباي فرّ إلى الجنوب التونسي في منطقة الجريد"[163].

أمّا Pellissier فقد حدّد موقع قبيلة الحنانشة في منتصف القرن 19 على مشارف مدينة الكاف حيث "لا توجد إلاّ الحدود الطبيعية الفاصلة بين الدولتين (الجزائرية والتونسية) وتنعدم الحدود السياسية غير المعترف بها. وبصفة عامة، كلّ ما يعود بالنظر إلى الحنانشة هو جزائري وكلّ المناطق غير التابعة لهم تونسية"[164].

160- Marmol, *L'Afrique de Marmol*, t.1, p.81.

161- Valensi (L), *J.A Peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis...op.cit.*, p.175.

162- هو الحسين بن محمد الشريف الورتلاني (1710- 1779) من منطقة ستيف بالجزائر. صاحب كتاب "نزهة الأنظار في فضائل علم التاريخ والأخبار" انظر تقديمها والتعليق عليها بالفرنسية :

Hadj Sadok (M), « A travers la Berbérie Orientale du XVII^{e} S ; avec le voyageur Al Warthilani », *Revue Africaine*, n°428-429, 3^{e}/4^{e} tri. 1951, pp.315-396.

163- *Ibidem.*

164- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis... op.cit.*, p.178.

أمّا قبيلة النمامشة فقد اتّخذت مجال تحركها مداخل المناطق الصحراوية وتحديدا منطقة شط الجريد. وهذه القبيلة فرضت سيطرتها على كامل منطقة الجريد بحيث "يتعرّض حتما كلّ مسافر يقطع هذه المنطقة لبطش مجموعات قطّاع الطرق المنتمين لهذه القبيلة. لكن، في فصل الربيع، عندما تتخذ محلة الباي مقرا لها مدينة توزر، يمكن للمسافرين المرور من هذه المنطقة بأمان"[165].

وتضلّ "قبيلة الهمامّة" من أشهر القبائل المغيرة على الإطلاق. وفي تقديمه لمختلف القبائل التونسية، يعتبر Pellissier أنّ "لهذه القبيلة صورة سيّئة من بين القبائل الأخرى، وهي تستحقّ هذه الصورة حسب ما شاهدته. هؤلاء العرب ينهبون إلى حدود منطقة صفاقس والسّاحل. منذ ثلاث سنوات تمكّن قطّاع الطرق المنتمون إلى قبيلة الهمامة من نهب جزء من الجيش النّظامي عندما كان في طريقه إلى القيروان قادما من سوسة"[166].

ويؤكّد نائب القنصل الفرنسي في صفاقس Mattei خطورة هذه القبيلة التي أصبحت في عهده تسيطر على جزء كبير من الجنوب الغربي للبلاد التونسيّة. ذكر ذلك في إحدى مراسلاته إلى القنصل الفرنسي Léon Roches بتاريخ 18 جوان 1856 حيث كتب : "الهمامّة، قبيلة تقطن على تخوم الجريد الجزائري[167] وقبيلة جلاص التّابعة للقيروان لا تسمحان لأيّ قافلة بالمرور دون أن تفرضا عليها دفع فدية. وهاتان القبيلتان تسرقان وتنهبان من مناطق قبائلنا

165- *Ibid*, p.147.

166- تحتفظ الذّاكرة الشعبيّة في منطقة سيدي بوزيد أنّ قطّاع الطرق اقتسموا الغنيمة الّتي تحصّلوا عليها بعد مهاجمتهم للمحلّة بالكبوس، أي الشّاشية التّونسيّة. إلاّ أنّ هذه الرّواية لا تحدّد زمن حصول تلك الحادثة. وحسب رواية الرحالة الفرنسي فهذ العمليّة تمّت هذه العملية في حدود سنة 1839.

167- يخطئ ممثل القنصلية الفرنسية بصفاقس في تحديد مكان استقرار هذه القبيلة ولعلّه حدّد مناطق نفوذ القبيلة. انظر الخريطة الّتي أوردها مبروك الباهي حول "مجال إغارات قبيلة الهمامة في القرن 19" **القبيلة...، نفس المرجع**، ص 179.

الجزائريّة لمنطقة الصّوف إلى حدود مداخل تونس. ومع ذلك، تتمتّع القبيلتان بحماية قصر باردو وتتباهيان بالإفلات من العقاب"[168].

ذلك ما يتناقض مع ما يؤكّده Pellissier أنّه "في كلّ سنة يتولّى باي المحلّة بنفسه أمر هذه القبيلة (الهمامّة) وهو في طريقه إلى الجنوب التّونسي. أي أنّه يفرض عليها ضريبة مرتفعة تقدّر حسب أعمال النّهب الّتي قامت بها خلال تلك السّنة. و يجب الملاحظة أنّ هذه الضريبة تذهب إلى خزينة البيليك ولا يتحصّل الّذين وقع نهبهم على أيّ مقدار مالي"[169]. وقد تواصل تمرّد هذه القبيلة إلى الفترة الاستعماريّة إذ يفيدنا Mayet سنة 1884 أن فيالق من الجيش الفرنسي تعرّضت إلى سطو القبائل الجنوبية المتمرّدة وبالتحديد فرع من قبيلة الهمامة[170].

مثّل العهد الحديث إذن، زمن التحولات التي تفاعلت في بلورتها عناصر عدّة أبرزها العامل السياسي وتشكّل الهويّة التونسية تدريجيا باستقلال الإيالة التونسية عن الباب العالي وقيام دويلات "مَحلّية" ساسها العنصر التركي. إلاّ أنها تدرجت نحو تونسة دواليب الحكم في تأقلمها مع المعطيات الاجتماعية والثقافية المحلّية. وفي هذا الإطار برزت البداوة التونسية في طابعها المحلّي وخصوصيّاتها السوسيوثقافية. وقد تبلورت هذه الخصوصيات حول القبيلة التونسية التي خلقت لنفسها ذاتية تمثّلت في التدرّج نحو الاستقرار والتكيّف مع المعطيات السياسيّة التي فرضتها السلطة المركزية والعلاقات الاجتماعية الجديدة في إطارها الريفي المتطور وفي تباينها مع الظاهرة الحضرية. إلاّ أنّ البداوة التونسية لم تتخلّ نهائيا عن مخزونها الثقافي الذي كرّسته "علاقاتها وتحالفاتها وسجل أعرافها وتقاليدها..."[171].

168- Jamoussi (H), « Les archives paroissiales, une source d'histoire régionale et locale : Les archives de l'église de Sfax comme exemple », in *Recherches sur l'histoire des villages en Tunisie*, Vicort, Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Sfax, Sfax 2008, p.63.

169- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis... op.cit.*, p.129.

170- Mayet (V), *Voyage dans le Sud tunisien...op.cit.*, p.p.87-88.

171- مبروك الباهي، **القبيلة...، نفس المرجع**، ص 179.

لكن، هل آل الأمر فعلا إلى تفكّك البداوة بانتهاء زمن التنظيم القبلي إن كان ذلك بفاعل "الحدث الاستعماري" أو بحكم التطور و"التحضر" ؟[172] .

تبدو هذه الإشكالية في صلب اهتماماتنا إذ ساعدتنا آثار الرحالة الأوروبيّين في رصد تطور البداوة في تونس الحديثة. فقد وافانا هؤلاء الأجانب في بدايات الفترة الحديثة بصورة دقيقة عن مجتمع بدوي مشتّت يضرب في عرض البلاد التونسية دون اعتبارات جغرافية ولا قيود سياسيّة معتمدا نمط عيش بدوي قوامه الترحال ورعي الإبل. ممّا أدّى إلى اصطدام عنيف بين أولى التشكيلات السياسية التركية وهذا المجتمع "الثائر بطباعه" و"المتوحّش" حسب العبارة الخلدونية. واتّسم القرن 17 تحديدا بالصراع سجالا بين السلطة المركزيّة والقبائل البدوية داخل البلاد أينما حلّت فارضة عليها الاستقرار ونظام جبائيّ مجحف. ومع بوادر القرن 19 وتحديدا منذ نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر أصبح الحديث عن مجتمعين من البدو : "المستقرّين" و"المرتحلين" وعن تطور واضح في نمط عيش هؤلاء وأولئك نتيجة تداخل العوامل السياسية والتطور الاقتصادي الّذي شهدته البلاد. فلا غرو إن اعتبرنا هذه النقلة الواضحة في حالة البدو في تونس الحديثة. واستنتجنا في نهاية الأمر أنّ ظاهرة البداوة تدرجت قبيل الاستعمار الفرنسي إلى التلاشي بحكم عامل التكيف مع المعطيات السياسية والاقتصادية الّتي طبعت القرن 19 محلّيا بالإيالة التونسية وإقليميا بشمال إفريقيا. إلاّ أنّ تفكّك البداوة لم يقض نهائيا عن "ثقافة البادية" الّتي تواصلت مرسّخة في مجتمع بدوي حافظ على مخزون ثقافي قد يعود في بعض الأحيان إلى عدّة قرون خلت.

III. الخصائص الثقافية للبدو في تونس الحديثة :

خلصنا إلى أنّ البداوة تشير إلى "نمط عيش مادي وثقافي" متطور يرتبط ارتباطا وثيقا بمجال جغرافي محدود وبمجموعة بشرية معينة. انطلاقا من هذه المعطيات يمكن أن نتحدث عن ثقافة بدوية تونسية تفاعلت في بلورتها

172- حسب مبروك الباهي، "لم يتحقق(استقرار القبيلة التونسية) بمجهود سلطة الحماية إذ أنّ عوامل تفكّك القبيلة تمتد بعيدا قبل الحدث الاستعماري" **المرجع نفسه**. انظر كذلك :

M'halla (M), "Sahara et Oasis avant la fin du bédouinisme…" *op.cit.*

حضارتان: الحضارة العربية والحضارة البربرية أو الأمازيغية، واختزنت مضامينها الذاكرة الجماعية للبدو على امتداد القرون.

ولئن أهملت المصادر المحلية، خلال الفترة الحديثة، الجوانب الاجتماعية والثقافية لهذه الشريحة من المجتمع بسبب نظرة الاستنقاص "للأعراب" أو "العربان" "زريعة الخبث والفساد والأصل اللّئيم..."[173] فإنّ آثار الرحالة الأوروبيين جاءت تزخر بمادة ثرية تخبرنا عن مقومات هذه الثقافة البدوية التي سيقت بالكلمة وبالصورة في بعض الأحيان. ولعل مثل هذه المصادر ينفرد بما قدمته لنا من وصف دقيق للحياة اليومية للبدوي التونسي خلال الفترة الحديثة من كل جوانبها. وبما أن نسبة هامة من عادات وتقاليد البدو ونمط عيشهم بصفة عامة قد اندثر وتلاشى بحكم عاملي الزمن والتطور فإن ما ورد في مثل هذه الآثار يصبح بالنسبة لنا مصدرا على غاية من الأهمية نتمكّن من خلاله الوقوف على أبرز مقوّمات هذه الثقافة البدوية.

1. ثقافة البادية :

للبدو التونسيين مقومات ثقافية تختلف في مجملها عن "ثقافة البادية" في مناطق أخرى من الوطن العربي إذ أن عناصرها السوسيوثقافية هي نتاج للّقاح الذي حصل على امتداد القرون بين حضارتين عريقتين عربية وبربرية بحكم انتمائهما إلى نفس الإطار الطبيعي الّذي تستخلص منه هذه الثقافة عناصرها.

وقد وافتنا آثار الرحالة الأوروبيين بأخبار متنوّعة عن هذه الثقافة لما جبل عليه الرحّالة أنفسهم من حب اطّلاع ودقة ملاحظة حتى أنك تخال نفسك أمام مشاهد حية من الحياة اليومية للبدو رحلا كانوا أو مستقرين. ولئن صنف هؤلاء الأوروبيون البدو على امتداد مختلف الفترات حسب جذورهم إن كانوا عربا أو بربرا وحسب لهجاتهم التي ألفتت انتباههم أو حسب استقرارهم أو ترحالهم بين مختلف مناطق البلاد التونسية، فأنهم لم يفرقوا في رصدهم لمختلف أوجه حياة البدو بين هذه الأصناف إن كان مستقرهم في الجبال أو السهوب أو الصحاري أو منتقلين بين هذه المناطق. فالبدويّ خلال كامل

173- ابن أبي دينار، **المؤنس**...ص 231.

الفترة الحديثة يتّصف في نظرهم بنفس الأوصاف خصالا كانت أو عيوبا. وحتى خلال القرن 19 عندما نزعت البداوة إلى الاستقرار وتأقلمت بعض المجتمعات البدوية مع استقرارها فهي أبقت على طابعها البدوي و"ثقافتها البدوية". وقد لفت انتباه الرحّالة الأوروبيّين أنّ البدو "هم أكثر الشعوب محافظة على عاداتهم وتقاليدهم... فهم يعيشون مثلما عاش آباؤهم الأوائل. لهم نفس العادات والتقاليد وطريقة التغذية ولهم نفس اللّباس..."[174]. كما أنّهم "أعرضوا عن التحضر وما حدث في المدن من تغيّرات متواصلة أثّرت على نمط عيش سكانها"[175].

ويمكن أن نمحور أبرز ما ذكره لنا هؤلاء الأوروبيين عن "ثقافة البداوة" في صور أربعة :

أ. صورة البدويّ :

قدّمت لنا كتب الرحالة على امتداد الفترة الحديثة البدو بالكلمة والرسم والصورة الفوتوغرافية، منذ نهاية القرن 19، بكامل تراب البلاد التونسية. ووقفت على أدقّ الجزئيّات كوصفها لبشرة البدويّ وهيأته الخارجية ولباسه، ممّا مكّننا من استكمال ما سبق من ذكر لطباعه ونمط عيشه وعلاقاته بالسلطة وببني جنسه. وتبرز هذه الأوصاف التي انفرد بها الأوروبيّون، الاهتمام الخاصّ الذي حضي به هذا الرهط من التونسيّين.

بدو الصحراء في نهاية القرن 19[176]

174- Cuoq (J), *Venture De Paradis…op.cit.* , p.49.

175- Shaw (T), *Travels observations…op.cit.*, t.1, p.390.

176- Mayet (V), *Voyage dans le Sud tunisien...op.cit.*

رسم كلّ الرحّالة نفس الصورة للبدوي الّذي بدا لهم أقرب إلى الوحشية من حيث هيأته الخارجية. خلافا لكونه أسمر اللّون، ذا بشرة تميل إلى السواد وأشعث الرأس، فهو حسب الوصف الّذي قدمه Peyssonnel في بداية القرن 18، لا يرتدي إلاّ "عباءة من الصوف يسمّونها سوفيسالي[177] يصل طولها إلى أربعة أمتار وعرضها متر واحد. وتحلّ هذه العباءة محلّ القميص والجوارب والسروال والسترة والقبعة. يربط جزءا منها تحت يده اليسرى ويسقطها حتى الأرض ثمّ يرفعها على الجانب الأيمن ويضعها على رأسه"[178]. ويضيف الأب Poiret في نهاية القرن 18، أنّ "الأعيان والأشراف يتميّزون بارتداء قميص كبير من الصوف طويل وعريض الأكمام يحمل في أعلاه غطاءا للرأس وينسحب على كامل جسمه إلى الأسفل، وتزينه شرابة من الحرير حول فتحة الصدر والعنق أمّا رؤوسهم فهي مغطّاة بعقال قدّ من شعر الجمل..."[179].

لوحة الفنان الروسي التونسي Roubtzoff (بداية القرن 20) [180]

177- لعلّ **السفساري** كان يطلق في تونس على العباءة التي يرتديها الرجال في البادية مثله مثل اللّحاف الّذي ترتديه النساء في المدن عند خروجهن من بيوتهن للشارع. ويتكوّن من قطعة قماش عريضة من الحرير غالبا، تضعنها على رؤوسهن وتربطنها على خصورهنّ برباط من القماش.

178- Valensi (L), *J.A Peyssonnel, voyage dans la Régence de Tunis...op.cit.,*. p.138.

179- Abbé Poiret, *Voyage en Barbarie...op.cit.*, p.229.

180- www.**roubtzoff**.org/

أمّا البدويّة، فقد حظيت بأكثر اهتمام من الرجل بل أثارت فضول هؤلاء الأجانب الّذين سعوا بأكثر جرأة إلى التعرف عن قرب على محاسنها، على غرار ما قام به نائب القنصل الفرنسي Pellissier عندما دفعه فضوله للتكشّف على فتيات كنّ يغتسلن في واد مرق اللّيل متعلّلا بأنّه ضلّ طريقه، فانبهر بجمالهن الطّبيعي وهنّ نصف عاريات[181].

ارتسمت تقريبا نفس الملامح للبدويّات في آثار هؤلاء الأجانب خلال الفترة الحديثة مثلما صورهنّ أبو الحسن الوزّان "مكتنزات شحما ولحما، أردافهنّ غليظة ونهودهنّ بارزة غير أنّ خصورهنّ في غاية من الرقّة..."[182]. ويبدو أنّ السمنة هي إحدى مفاتن البدويّة والحضريّة على حدّ السواء، شأنهما في ذلك شأن المرأة العربيّة عموما[183]. وتتباهى البدويّة بسمنتها بل تحاول إبرازها بلباسها الفضفاض الذي يتكوّن من "قميص أسود اللّون له كمّين واسعين فوقهما غطاء أزرق أو أسود تلتحفه وتشد جزءا منه بمشبك من الفضة على صدرها... ولكي تتباهى بجمالها تضيف البدويّة الشابّة أشكالا مختلفة باللون الأزرق على أجزاء عديدة من جسمها مستعملة شوكة حادة ومحلول الزنك الخالص[184] وتكحل عينيها..."[185]. كما تتجمّل بحليّ مختلفة، "فهي تضع أقراطا في آذانها وحِلقٍ من الفضة وفي أرجلها (خلاخل) وأساور في معاصمها (دبلج) على طريقة البلاد..."[186].

181- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis... op.cit.,* p.206.

182- Léon (l'Africain), *De l'Afrique... op.cit.*, t.1, p.59.

183- يذكر الطبيب الخاص لحمود باشا باي Louis Frank أنّ النساء بمصر كنّ يتعمّدن الأكل بشراهة ويضفن إلى طعامهن بعض الحشرات والزواحف. Marcel (J.J), *Tunis... .op.cit.,* pp. 107. انظر :

Jamoussi (H), "L'image de la femme tunisienne à l'époque moderne à travers les témoignages des Européens", *Arab Historical Review For Ottoman Studies*, n°33, F.T.E.R.S.I, septembre 2006, pp.45-62.

184- يمدّنا Peyssonnel بالطريقة التي تعتمدها الفتيات البدويّات للوشم:" تنشر الفتيات على الأجزاء التي تريد وشمها مادّة زرقاء حمراء أو سوداء ثمّ تخز الجلد بإبرة حادّة مشكلة رسوما حسب رغبتها. وهذه الرسوم لا تمّحي فيما بعد. وحتّى الرجال فهم يوشّمون أذرعهم أحيانا" Valensi (L), *Voyage...op.cit.,* p.139.

185- Marmol, *L'Afrique de Marmol*, *op.cit.,* t.1, p.88.

186- *Ibidem.*

أثرت مختلف الحضارات الّتي تعاقبت على البلاد التونسيّة، وتحديدا البربريّة والعربيّة، على مكوّنات وطرق التجميل لدى المرأة البدويّة. فالوشم والحنّاء والكحل والسواك كلّها طرق للتجميل ورثتها البدويّات، كما الحضريّات، عن جدّاتهنّ البربريّات والعربيّات وعن أقدم الحضارات كالحضارة المصريّة القديمة. فعادة التكحّل هي فرعونيّة "استعملتها النساء والرجال على حدّ السواء للتجميل وخاصة للتداوي من بعض الأمراض"[187]. ويعطي التكحّل جمالا للبدويّة لا نظير له وسرّ هذا الجمال يظهر جليّا في "النّار المشتعلة من عينيها...فهي تحذق إرسال نظراتها ولا يمكن لأيّ امرأة أخرى أن تنافسها في ذلك..."[188]. "وحكّ الأسنان والشفاه بقشرة شجرة الجوز يعطي الفم رائحة طيّبة. وحسب اعتقادهن يحافظ ذلك على الأسنان التي تبدو، فعلا، ناصعة ومصطفة..."[189]. أمّا الحنّاء فهي أشهر مواد التجميل على الإطلاق لأنّها استعملت في كلّ الحضارات. "خلافا لتخضيب الشعر تستعمل النساء أوراق شجرة الحناء بعد طحنها للتعطّر فتضعنها داخل ثيابهنّ. كما أنّ لهذه النبتة فوائد على إثارة الشهوة الجنسيّة..."[190].

كما مدّنا الرحّالة بطرائف الروايات الشعبية التي نسجت حول بعض البدويات التي راج صيتها بين القبائل. مجدت هذه الروايات جمالهن وشجاعتهن على غرار "الكاهنة" و"الجازية الهلالية". أمّا خلال الفترة الحديثة فقد برزت بعض النساء الأخريات من بينها "علجية" بنت شيخ قبيلة النمامشة التي دوّخت الأتراك في نهاية القرن 17 عندما قادت فرسان قبيلتها وواجهت عساكرهم الذين داهموا القبيلة المغيرة لإذعانها وهزمتهم[191]. أمّا "الغالية" بنت شيخ جرجيس فقد قابلها Pellissier وانبهر بجمالها وشجاعتها "التي تضاهي شجاعة الرجال إذ كثيرا ما كانت تتواجد في الصفوف الأولى من المعارك تقود فرسان

187- Shaw (T), *Travels observations...op.cit.*, t.1, p.394.

188- Pananti (F), *Relation d'un séjour à Alger*...traduit de l'anglais par Normant, Paris, 1820, p.342.

189- Marcel (J.J), *Tunis, description de cette Régence...op.cit.*, p.106.

190- *Ibid*, p.108.

191- Valensi (L), *Peyssonnel, Voyage...op.cit.,* p.176.

قبيلتها"[192]. وهي ظاهرة عربيّة قديمة تعود إلى فترة ما قبل الإسلام[193]. أمّا بتونس، فقد ذكر الرحّالة الإسباني Marmol أنّ "النساء كنّ دائما يرافقن الرجال في رحلاتهم وحروبهم لتشجيعهم وللاطمان بوجودهنّ إلى جانبهم. فكانوا يحملونهنّ فوق الجمال في شبه نقالات من الخيزران لا تسع إلاّ لشخص واحد"[194].

بعض نماذج من حليّ البدويات[195]

ب. الكرم من شيم البدو :

لم يكن الكرم مصطنعا في حياة البدو بل هي إحدى شيم العرب قاطبة والبدو على وجه التحديد. ولقد اعتبر صاحب المقدّمة أنّ "البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر" حتّى "وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم (أهل الحضر)...فهم

192- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis op.cit.,* pp.165-166.

193- منذ الجاهلية كانت المرأة تتباهى بمرافقتها للرجال في ساحة الوغى وتنسج لذلك أشعارا على غرار :

نحن بنات طارق، نمشي على النمارق إن تقبلوا نعانق، إن تدبروا نفارق

194- Marmol, *L'Afrique de Marmol*, *op.cit.,* t.1, p.88.

195- www.**roubtzoff**.org/

أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد ما ينطبع في النفس من سوء الملكات..."[196]. وقد أكّد كلّ الرحّالة الأوروبّيين بدورهم ودون استثناء، هذه الخصال لدى كلّ البدو الّذين اعترضوا سبيلهم. بل أنّ البعض اعتبر "حسن الضيافة" إحدى القيم "الصادقة" التي حافظت عليها هذه الشعوب على "فطرتها" وطبيعتها البدائيّة في حين اندثرت في أوروبا وأصبحت "مفتعلة"[197].

والكرم حسب Shaw : "هي عادة قديمة أصبحت بمثابة قانون لدى هذه الشعوب إذ أنّهم يقدّمون للصبايحي[198] ولكلّ من كان معه "المونة"[199]، أي الزاد الضروري لهم ولخيولهم". بل إنّ الاستقبال كان غالبا ما يتعدّى حدود الواجب نحو ممثل السلطة. وحسب الوصف الذي مدنا به هذا الرحالة الشهير، يتنافس أصحاب الخيام على استقباله وإيوائه صحبة رفقته. وكلّما حلّوا بدوّار أو بتجمّع بدوي، أسرع البدو بالاحتفاء بهم فيقدّمون لهم "أوعية كبيرة من الحليب وسلّة من الغلال والفواكه في بداية الأمر ثمّ يقومون بذبح شاة أو خروف أو ماعز على شرفنا..."[200].

وانبهر الكاتب الفرنسي الشهير Flaubert[201] من ناحيته بالحفاوة[202] الّتي حضي بها عندما استقبلته النساء بالزغاريد بينما كان صاحب الخيمة يذبح أكبر خرفانه. ثمّ تلذّذ أكلة الكسكسي مع حليب الناقة. وانتهت المأدبة بأن خصّصوا له أفضل الخيام لقضاء ليلته. وذكر Victor Guérin من ناحيته أنّه كلّما مرّ بإحدى

196- **المقدمة...نفس المصدر**، ص 153.

197- Abbé Poiret, *Voyage en Barbarie...op.cit.*, p.229.

198- يقوم الصبايحية بمهامّ الشرطة في المدن. كما كان البايات يكلّفونهم بمرافقة الأجانب في تنقّلاتهم عبر مناطق الإيالة لحمايتهم.

199- هي عادة فرضها البايات على القبائل عند مرور "المحلّة" بأن تقدّم للباي وحاشيته ولخيولهم "مؤونتهم". ثمّ أصبحت بمثابة قانون يجبر كلّ المجموعات البدويّة على تقديم الغذاء والراحة لممثّلي السلطة ومرافقيهم.

200- Shaw (T), *Travels observations...op.cit.*, t.1, introduction.

201- هو من أشهر الكتاب الفرنسيّين. زار تونس في نهاية خمسينيات القرن19 لجمع المعلومات لكتابة قصته الشهيرة "صلامبو".

202- عبّر عن هذه الحفاوة "بالتربية البدوية".

Flaubert (G), *Carnet de voyage à Carthage*, texte établi par Claire-Marie Delavoye, publication de l'université de Rouen, Rouen 1999, p.146.

قبائل البدو الرحّل أو المستقرّين إلاّ وأكرموه وأقام بينهم تحت خيمة نصبت له خصّيصا وذبحت له ولمن رافقه الخرفان[203].

ت. الاحتفالات والشعر والغناء

هي عناصر ثلاث لا يمكن التفرقة بينها إذ أنّ المناسبات الاحتفالية المتمثّلة أساسا في الأعراس لا تتمّ إلاّ إذا التقى فيها الشاعر والمغني وفي غالب الأحيان يكون المغنّي هو نفسه شاعرا. بيد أنّ الأوروبيّين، بحكم اختلاف ثقافتهم الغربيّة، لم يستسيغوا الأهازيج البدويّة بل اعتبروها ضربا من ضروب "الضجيج" الّذي لا يعتمد على مقاييس ثابتة أو علميّة وتتمثّل في نغمة واحدة يكرّرها الشاعر في كلّ المناسبات. ومع ذلك، تعجّبوا من قدرة البدو على الارتجال وإلقاء القصائد الغنائيّة على امتداد ساعات[204]. ويؤكّد Shaw أنّ للبدو قدرة غريبة على "حفظ الألحان معتمدين على السماع فقط دون العودة إلى الكتب...". وقد استمع إلى بعضهم يتغنون طوال اللّيل "دون أخطاء ودون أن تظهر عليهم ملامح التعب"[205].

كما وافانا نفس الرحالة بوصف دقيق لبعض الآلات الموسيقية المستعملة كآلة "الرباب وهي عبارة عن كيس له خيط واحد و"القصبة" وهي ناي كأبسط ما يكون فتح من طرفيه وبه ثلاثة أو أربعة ثقب. أمّا الطار البدوي فهو آلة إيقاع أحاطوا جوانبها بصفائح صغيرة من الفولاذ. وعندما تصطدم ببعضها، حسب قوّة الضربات على الجلد، تحدث أصواتا أو إيقاعات عذبة عند سماعها"[206]. أمّا أطرف ما وافانا به هذا الرحالة هو مقتطفات لبعض الأغاني البدويّة اعتمد ترقيمها حسب السلم الموسيقي بحيث يمكّننا قراءة ألحانها ومقارنتها بما توارثته الأجيال من موسيقى بدويّة[207].

203- Guérin (V), *Voyage archéologique...op.cit.*, t.2, *op.cit.*, p.358.

204- Marty (P), « Les Chants lyriques populaires du sud tunisien : étude, textes et traduction », in *Revue Tunisienne*, n°25, 1er trim. 1936, pp.93-136.

205- Shaw (T), *Travels observations...op.cit.*, t.1, p.349.

206- *Ibidem.*

207- *Ibidem.*
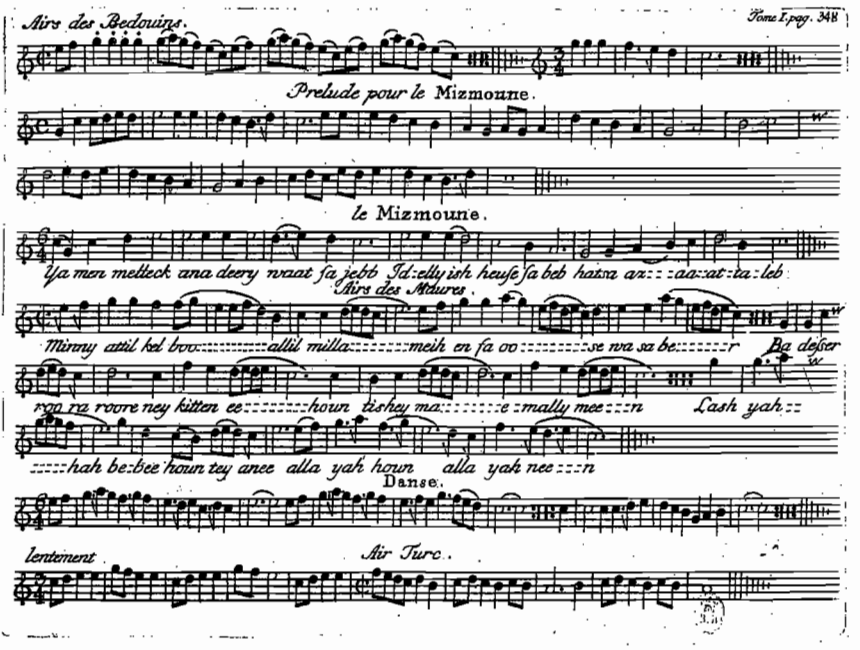
ث. الصيد والغذاء

امتازت حياة البدو بشظف العيش وأقوات "يتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج"[208]. ويعتمد غذاؤهم على إنتاج الأراضي التي يفلحونها لذلك "تختلف عاداتهم وطريقة معاشهم باختلاف المناطق التي يقطنونها...فعرب إفريقيّة بين الأطلس والبحر المتوسط، يحرثون الأراضي الخصبة ويحصلون منها على كمّيات وافرة من الحبوب"[209]. يستخرج البدو من هذه الحبوب أنواعا مختلفة من الأكلات التي لا تزال تمثل الغذاء الأساسي للمناطق الريفيّة عموما. وقد مدّنا Peyssonnel بقائمة من أشهر هذه الأكلات : "فخلافا للكسكسي[210]، يأكل البدو في المناطق الخصبة "البازين" وهو طحين القمح يخلط بالماء والعسل ويطبخ في قدر من الفخار حتّى يبيس...كما يأكلون "البسيسة" وهي طحين

208- ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدّمة... نفس المصدر**، ص 151.

209- Léon (l'Africain), *De l'Afrique... op.cit.*, t.1, p.60.

210- وهي أكلة البربر من أقدم العصور، توارثها الأجيال وانتشرت في كامل أرجاء شمال إفريقيا.

الحمص والشعير يخلط بالماء، وفي بعض الأحيان بالحليب. كما يأكلون "العصيدة" وهي كذلك طحين القمح يضيفون له الحلبة ويطبخونه في شكل ثريد...ويكتمل غذاؤهم ببعض الفواكه التي تنبت في مناطقهم..."[211] .

أمّا الخبز المتوفّر لدى المجتمعات الحضريّة، أو الرغيف حسب تسمية بعض المناطق، فهو غذاء نادر "يخصّص للمناسبات أو عندما يحلّ عند البدو ضيف مبجّل". وتتمّ صناعته على مراحل. "فبعد فصل حبّات القمح أو الشعير عن قشرته الخارجيّة تقوم النساء برحيه برحى يدويّة ثمّ غربلته وأخيرا تقمن بعجن الطّحين المتحصّل عليه بالماء أو بالحليب أو بالزيت. يطبخ ذاك العجين فوق الرماد أو في أوعية فخّارية"[212].

في المناطق الصحراويّة، وهي "ثريّة بمختلف أنواع الحبوب والأشجار، خلافا لما يتهيّأ للبعض، تنبت غراسة ثمينة طولها قدر قدمين وتخرج حبّة الدرع الّتي تعوّض قمح المناطق الأخرى، يكتفي أغلبيّة سكان المناطق الصحراويّة بطحين الدرع الذي يصنعون منه عجينا يضيفون له حليب الناقة ويطبخونه في قدر من الخشب على حجارة احمرّت في النار، وهي طريقة بدائيّة نجدها لدى الشعوب الآسيويّة أو الأمريكيّة..."[213].

ولاكتمال غذائهم، اعتمد البدو على صيد الحيوانات البرّيّة إن كان ذالك في الغابات أو المناطق السباسبيّة أو حتّى في المناطق الصحراويّة التي كانت تعيش بها أنواع مختلفة من الحيوانات. يذكر Venture De Paradis في نهاية القرن الثّامن عشر أنّ المناطق الصحراويّة : "ثريّة بالأرانب البرّيّة والغزلان

211- Valensi (L), *Voyage...op.cit.*, p.242.

212- Cuoq (J), *Venture De Paradis...op.cit.* , p.52.

تطبخ "الطابونة" في حفر قليلة العمق تحمى بالنار ويوضع عجين هذا النوع من الرغيف على جوانبها.

انظر كذلك Peyssonnel في ذكر مطوّل عن طرق أخرى لصنع الخبز وعن مختلف أنواع الأكلات البدويّة.

Valensi (L), *Voyage...op.cit.*, p.14.1

213- Cuoq (J), *Venture De Paradis...op.cit.* , p.52.

الصحراويّة والجواميس الوحشية والأسود[214] والنّمور[215]. أمّا الطيور فهي عديدة ومتنوّعة وخاصّة منها ذاك النوع الضّخم الّذي يهدي ريشه للجميلات الأوروبّيات كي تتحلّين به. أمّا لحم النّعام وبيضه فهو يلعب دورا أساسيّا في الدّورة الغذائيّة لسكّان المناطق الصحراويّة الرحّل. ويمثّل ريش "الجمل المجنّح"[216] أهم المنتجات الفلاحيّة الّتي تعرض في الأسواق الأوروبّية"[217].

وينفرد Louis Frank بالوصف الدقيق والمطوّل الذي مدّنا به عن صيد النّعام فيقول: "يركب الصيّادون خيولهم بعد أن يتأكّدوا من كونهم حملوا معهم نصيبا من الماء للشّراب عندما تشتدّ الحرارة. تبدأ عمليّة الصّيد في حدود منتصف النّهار في الفترة الّتي تتجمّع فيها النّعامات في مجموعات تعدّ بالمئات. عندما تتفطّن النّعامات من وجود الصيّادين تفرّ في كلّ الاتّجاهات وعندها ينطلق الصيّادون خلفها. تتواصل عمليّة التسابق هذه في بعض الأحيان أربع ساعات بدون انقطاع إلى أن تنهار الحيوانات من شدّة الإرهاق وتشلّ حركتها وتتوقّف نهائيّا عن الجري. عندها ينزل الصيّاد من حصانه ويقطع رأس النّعامة ويضع الجثّة على ظهر الجمل ثمّ يعود للبحث عن طريدة ثانية. وقلّ أن يتحصّل الصيّاد على أقلّ من نعامتين"[218]. يسلخ الصياد جلد النّعامّ "بضرب الجسم بقبضة اليد حتّى ينفصل الجلد عن العظام. ثمّ يقوم بإخراج مواد النّعام الدسمة أوّلا في شكل سائل يضعه في وعاء. وعندما يجمد يستعمل كدواء لجبر الكسر ولبعض الأمراض الجلديّة الأخرى"[219].

214- اندثر الأسد الصحراوي والأطلسي منذ منتصف القرن التّاسع عشر إذ أنّ آخر من تحدّث عن الأسود والفهود في تونس هو Dunant الّذي أقام في العاصمة ما بين 1856 و1857. ويذكر André Louis أنّ آخر الأسود قتل في جبال خمير سنة 1932.

215- لعلّه يعني الفهود وهي بدورها اندثرت في نفس الفترة.

Louis (A), *Nomades d'hier et d'aujourd'hui dans le sud tunisien*, édisud, Aix-en-province, 1979, p.101

216- هي عبارة أطلقها الأوروبّيون على النّعام منذ القديم.

217- Cuoq (J), *Venture De Paradis…op.cit.* , p.51.

218- Marcel (J.J), *Tunis, description de cette Régence…op.cit.*, p.123.

219- Louis (A), *Nomades d'hier,… op.cit.*, p.110.

تطالعنا في بعض الأحيان طرق طريفة لصيد حيوانات برّية أخرى ذكرها رحّالة كانوا قد سمعوها عن سكان البادية. فلصيد الغزلان، تقلّد النسوة ثغاءها الرقيق لجلبها. ثمّ يتولّى الرجال قتلها"[220]. كما "تتولّى النساء كذلك جلب أنثى الضباع بالزغاريد ثمّ يتقدّم نحوها أحد الصيّادين قائلا: تعالي يا جميلتي سوف نخضّبك بالحنّاء ونزوّجك ونهديك حليّا... عندها تتقدّم الضبعة فيمسّد الرجل على قدمها ويطليه بروث البقر واضعا حولها عقدة يجرّها الصيّادون الذين يرافقوه ثمّ يلجمون فم الحيوان"[221]. أمّا الأسود فهي كانت تروّع المناطق الجبليّة وتهاجم القرى والدوّارات فتقتل الأبقار والخرفان. لذلك يقوم الرجال من حين لآخر بحملات شاسعة ضدّ هذه الحيوانات الوحشيّة. "ويقال أنّ الأسد يخاف النساء أكثر من الرّجال وأنّ بعض النسوة يهاجمن الأسد وهي تصيح في وجهه عارية الصدر : ألا ترى أنّني امرأة. فيتراجع الأسد مولّيا إلى الوراء"[222].

2. ثقافة الترحال

أ- النجعة

تدرّجت حياة بعض القبائل، وتحديدا تلك الّتي سكنت المناطق الوسطى للبلاد التونسيّة، نحو الاستقرار في مناطق محدّدة خلال القرن19، بينما أبقت قبائل أخرى على ترحالها كنمط عيش ارتبط مباشرة بظاهرة حضاريّة توارثها الأجيال عبر القرون. فالهجرة الجماعية، أو "النجعة"، حسب العبارة البدويّة، مثّلت إحدى مقوّمات حياة البدوي خلال الفترة الوسيطة وحتى الفترة الحديثة، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بتمسك البدو بحرّيتهم المطلقة في الطبيعة دون قيود تجبرهم على الاستقرار في مكان واحد أو الإكراه على العيش داخل تجمّعات حضريّة. وفي صور استقرار بعض القبائل في مناطق متاخمة للمدن الكبرى،

220- Pellissier (E), *Description de la Régence de Tunis op.cit.*, p.135.

221- قد يكون المثال التونسي "حصل كيف الضبع" أي "حصل في الفخّ مثل الضبع" وقع استقاؤه من طريقة صيد الضبع هذه.

Flaubert (G), *Carnet de voyage...op.cit.*, p.35.

222- Valensi (L), *Voyage...op.cit.*, p.168.

بحكم معاملاتها التجاريّة مع أهاليها، فإنّها تبقي على نصيب من حرّيتها للانتقال متى شاءت إلى مناطق أخرى..

صورة لترحال إحدى القبائل[223]

لاحظ جلّ الرحالة الأوروبّيين الحركيّة التي كان عليها الوسط التونسي على امتداد السنة. فالقبائل تتنقل في شكل جماعي في كلّ الاتجاهات. ومن بينها، ذكر Pellissier إحدى القبائل اليهوديّة التونسيّة، "وهي من بطون قبيلة دريد. يتكلّم بدو هذه القبيلة العربيّة ويتمسكون بعادات وتقاليد القبائل العربيّة الأخرى. ولا يختلفون عنهم إلاّ دينيّا. بعضهم حدّادون وبعضهم صائغون والبعض الآخر من الفلاّحين أو رعاة. يهود فلاّحون، إنها فعلا غرابة يجب أن نلفت لها الانتباه..."[224].

وللترحال أو النجعة قوانينها وترتيبات سارت عليها القبائل التونسيّة منذ القديم كما يؤكّد ذلك أحد شيوخ قبيلة المرازيــق لباحث فرنسي في بداية القرن 20 : "كان مرازيــق هذه الفترة (قبل دخول الاستعمار) يرحلون كلّهم، ما نسمّيه "ترحال الكلّ"...ولا تبقى في الدوّار إلاّ بضعة عائلات، تلك التي لا تملك

223- Mayet (V), *Voyage dans le Sud tunisien...op.cit.*

224- Fallot (E), *Une excursion à travers la Tunisie ...op.cit.*, p.9.

"لا باعْ ولا بعْ"[225]. وهي التي تتولى حراسة الدوّار وسقي النخيل. في بداية فصل الشتاء[226] يقرّر كبار القوم اليوم الذي يتمّ فيه الرحيل[227]. عادة ما يكون الاثنين إذ أنّ يوم الأربعاء يتطيّر منه أهالي القبيلة ويوم الجمعة يخصّص للراحة. قبل ذلك، تكون النسوة قد أعدّت الخيام وما يلزم من المؤونة[228] في احتفال بهيج. كما تقوم النسوة كذلك بزيارة زوايا الأولياء الصالحين حيث تجمع بعض الحجارة التي تحتفظ بها طوال الرحلة وذلك لحماية الرحّل من الأمراض ولقذفها في وجه العدو إذا تمّت مهاجمة القافلة"[229].

وقد تغنّى شعراء قبيلة المرازيق "بالنجعة"[230] :

نجع الرحيل
هز في الليل (حمل ليلا)
ساق المراحيل (الإبل التي ترحل)
من بكرة الفجر ساري (في الفجر ساروا)
لا ضو لا ثم قنديل
عالبل تحميل (تحملهم الإبل)
مياح القمر طلعت سهيل (ضوء القمر سهل السير)
هز النسا والذراري (الذراري : الأطفال الصغار)
أولاد ركبت عالخيل

225- بمفهوم "لا خروف ولا شاة".

226- قد يوافق الموعد بداية فصل الربيع بالنسبة لقبائل المناطق الشمالية.

227- يعود قرار الرحيل "لميعاد" القبيلة وهو مجلس كبار القوم الذين يقرّرون كلّ ما يهم شؤون القبيلة.

228- تتمثل المؤونة أو الزّاد في "نوع من طحين الشعير أو القمح يقع عجنه بالماء أو بالحليب والشريح" أي التين المجفّف

انظر : Cuoq (J), *Venture De Paradis…op.cit.* , p.52.

229- Boris (G), *Documents linguistiques et ethnographiques sur une région du sud tunisien (Nefzaoua)* ; Paris, 1951 ; p.56.

230- جمع أحد القادة العسكريّين الفرنسيين في بداية القرن العشرين أشهر القصائد لقبيلتي ورغمّة والمرازيق بالجنوب التونسي وأغلبها يعود إلى القرن التاسع عشر.

Marty (P), « Les Chants lyriques populaires du sud tunisien : étude, textes et traduction », in *Revue Tunisienne*, n°25, 1er trim. 1936, pp.93-136.

أهل السيوف المصاقيل	(السيوف المصقولة)
أهل الثنا والفعاعيل	(أهل الثناء والأفعال الحميدة)
أهل البلا والخطاري	(تركب البلاء و الأخطار)
شرّق وقبّل تقبيل	(شرقت وقبّلت في سيرها)
لا بات لا حط الثقيل	(ساروا دون توقف)
طوح وخش الصحاري	(ساروا المسافات البعيدة وتوغلوا في الصحاري)
تحوّم على مازق السيل	(تبحث عن السيول الجارية)
ربيعه فاتح تخابيل	(فتح ربيعها بكل ألوانه)
تبلاّت الغنم والبكاري	(أكلت وتغنّت الغنم والنوق الصغير البكر)
باقل وشيح وقنديل	(أعشاب صحراوية)
عود الرتم والزهاري	
نزلوه في ساعة وقبيل	
أهل الطرب والطبابيل	
يلقوه عامل جراويل	(الجراويل : السيول الجارية)
صنعة خليقة الباري	
لا سوق لا يعرفو كيل	(لا يتاجرون و لا يستعملون كيلا)
أهل التظاليل	(الخيام التي تظلّل عليهم)
أهل الغنومات بالهيل	(لهم الأغنام بدون حساب)
أهل الأعياد الجراري	(حياتهم كلّها أعياد جارية)
ما يسكنوش المقافيل	(لا يسكنون البيوت التي تقفل)
كان الخلا و البراري	
يدوّرو على الفتن تعميل	(يبحثون على الفتن قصدا)
بين المنازيل	(ما بين المنازل)
يطاعنوا بالغداري	(يطعنون بالسكاكين)
نحوي على لابسات الخلاخيل	(ويلي من لابسات الخلاخل)
منهم سبايب غياري	(من أجلهن أغير)
نيران جاشي مشاعيل	(نيران قلبي تجوش)
زي المفاتيل من أم عيون المذابيل	(مثل الشمع المحترق)
شعلت مقايس ناري	(اشتعلت نيراني)

ب- الخيمة والدوار

وليمة أمام إحدى الخيام[231]

تمثّل الخيمة العنصر الأساسي الذي ترتكز عليه حياة البدوي. فهي بيته التي يلجأ إليها فتحميه الحرّ والبرد. وفي تجمّعها أمان له ولأرزاقه وأبنائه. عند استقرار القبيلة، تضرب الخيام فيصل عددها في بعض الأحيان إلى 200 أو 300 خيمة. وهي تشكل "قرى محمولة ينقلها أصحابها من هنا وهناك في أي وقت بحثا عن المراعي. وينظم الأعراب الخيام في شكل دائري الواحدة قرب الأخرى تاركين مدخلين الأول مخصص لدخول وخروج الأهالي والثاني لإدخال وإخراج الدوابّ. ويقع غلق هذين البابين ليلا بأغصان الأشجار والقشّ، فتقوم الخيام بذلك بدور الحصن الحامي للسكان والدوابّ المجمّعة في الوسط من الحيوانات الوحشية كالأسود، كما تحمي الجميع من الغارات الخارجية"[232].

"تسمّى الخيام، "بالقوارب المقلوبة"، نظرا للظلال التي توفّرها، كما تسمّى "بيت الشعر"... تصنع هذه البيوت بنفس الطريقة التي صنعت بها منذ العهد الروماني من شعر الإبل. تتشابه كلّها ولا تختلف إلاّ في حجمها، حسب عدد الأشخاص الذين يسكنوها. يُحمل القماش الذي صنعت منه على أعمدة وتقسم بداخلها عن طريق ستائر إلى شبه غرف. يدقّ صاحب الخيمة على الأعمدة

231- Mayet (V), *Voyage dans le Sud tunisien...op.cit.*

232- Léon (l'Africain), *De l'Afrique...op.cit.*, t.1, p.191.

معقّفاة من المعدن حيث تعلّق الثياب والآلات الفلاحية وسروج الخيول والأسلحة..."[233].

يمتلك شيخ القبيلة أكبر خيمة وهي ميزة وعلامة دالّة على رفعة مكانته بين أفراد المجموعة. وقد انبهر Fallot، في منتصف القرن 19، بإحدى هذه الخيام إذ لم يكن يتوقع كبر حجمها: " يبلغ وسط الخيمة، بدون مبالغة ارتفاع الطابق الأوّل لعمارة ذات أسقف مرتفعة. يفصلها في الوسط ستار كبير يقسمها إلى نصفين متساويين. يخصّص أحدهما للنساء والأطفال. وعند الرحيل يتطلّب حمل هذا البيت المتميّز عدّة جمال"[234].

الخاتمـــة :

اعتمادا على آثار الرحالة الأوروبيين تتراءى لنا صورة البدوي التونسي خلال الفترة الحديثة مثلما رسمها لنا أجانب عن الحضارة العربية. صورة اعترتها في بعض الأحيان قلة الوضوح والاستغراب بحكم انتماءات هؤلاء الثقافيّة وعدم قدرتهم على فهم حياة البداوة فالتجؤا غالبا إلى معاييرهم الغربية للحكم على نمط العيش هذا.

إلاّ أن دقة الوصف والوقوف على جزئيات حياة البداوة على امتداد الفترة الحديثة ساعدنا على رصد ديناميكية البداوة في تونس الحديثة وذلك من حيث تطورها من نمط عيش اعتمد على الترحال أساسا خلال الفترة الوسيطة وبوادر الفترة الحديثة إلى شبه استقرار عندما تشكّلت خصوصيّات القبيلة التونسية وارتبطت بالأرض وبالتالي "بالموطن"، فإلى الاستقرار النهائي منذ منتصف القرن 19، قبيل الاحتلال الفرنسي. وما قام به الاستعمار في مجال فرض الرقابة على القبائل النونسية المتحركة والمتنقلة من الجنوب نحو الوسط والشمال لا يفسّر بمفرده الاستقرار النهائي للقبائل التونسية في "موطن"

233- Shaw (T), *Travels observations...op.cit.*, t.1, p.369.

234- Fallot (E), *Une excursion à travers la Tunisie...op.cit.*, p.8.

محدّد[235]. فالعوامل التي دفعت بالقبائل إلى الاستقرار متعدّدة وهي سابقة للفعل الاستعماري تمثّلت أساسا في تتبّع السلطة المركزيّة القبائل أينما حلّت وفرض نظام جبائي مجحف عليها. كما ساهم تطور المجال الجغرافي/الاقتصادي في تونس الحديثة في تطوير نمط عيش البدو نحو الاستقرار.

وتمثلت الإشكالية الأمّ التي حاولنا إبرازها من خلال دراسة الواقع البدوي في الإيالة التونسية في الفترة الحديثة، في الوقوف على أبرز مظاهر الثقافة البدويّة التونسيّة والتأكيد على تشكل بداوة تونسية صرفة بحكم الواقع الجغرافي والسياسي والاجتماعي والثقافي الذي تميزت به تونس خلال هذه الفترة. ومدّتنا آثار الرحّالة الأوروبيّين في هذا الصدد برصيد هائل من المعلومات والإخبار عن هذه الثقافة البدويّة ممّا ساعدنا على بناء صورة حياة البدو من كلّ جوانبها بعاداتها وتقاليدها وأفراحها وأتراحها في استقرارها وترحالها. وهذه العادات تمثّل في نهاية الأمر مخزونا ثقافيّا تلاشى بحكم عاملي الزمن والتطور. ذلك ما لم نعثر عليه في المصنّفات التونسيّة.

لكن، هل أنّ آثار الرحّالة الأوروبيّين هذه كافية للوقوف على دقائق حياة البدو وثقافتهم خلال الفترة الحديثة ؟

نطرح هنا إشكاليّة المصادر التاريخيّة وتنوّعها. فبقدر ما يمكن الاعتماد على المصادر الغربيّة لكتابة التاريخ المحلّي، على أساس أنّها تنفرد ببعض الأخبار التي يتحاشاها أو يجهلها المؤرّخ التونسي، يجب أن نتّخذ كلّ الاحتياطات من مزالق هذه المصادر والمتمثّلة في النظرة المنغلقة للأوروبّيين ضمن المرجعيّات الغربية التي اعتمدوها في فهمهم "للآخرين"، مثلما سبق وأشرنا إليه أو نظرة الاستعلاء الأوروبيّة أو كذلك الأخطاء التي يقع فيها هؤلاء الأجانب في حديثهم عن الحضارة العربيّة الإسلامية من حيث الإحصائيّات التي يقدّمونها والأسماء العلم التي لا يحسنون نطقها وكتابتها.

235- غالبا ما يكون الحديث عن "وطن" القبيلة أي المنطقة التي تستقرّ فيها وبطونها وتدافع عنها من العدوان المتأتّي من القبائل الأخرى المنافسة لها أو المغيرة.